بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية السودان

جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم - مركز تأصيل العلوم

بالتعاون مع

إدارة تأصيل المعرفة بوزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المؤتمر العلمي العالمي الثاني

تأصيل العلوم الواقع والتحديات

الخرطوم / قاعة الصداقة فى الفترة ١١-١٣ محرم ١٤٣٦هـ الموافق له ٤-٦ نوفمبر ٢٠١٤م

تحت رعاية :

نائب رئيس الجمهورية / د. حسبو محمد عبدالرحمن

بإشراف :

وزيرة التعليم العالي والبحث العلمي / أ.د .سمية محمد أحمد أبو كشوة

ووالي ولاية الجزيرة / د. محمد يوسف علي

الأوراق العلمية

الكتاب الثالث

التأصيل النظرى للاعجاز السننى و تطبيقاته من خلال القرأن الكريم
المرتكزات والافاق

د. رشيد كهوس

استاذ بكلية اصول الدين بتطوان - جامعة القرويين / المغرب

مقدمة:

الحمد لله الذي كشف بنزول القرآن حجاب الظلم، وشرفنا بسيدنا محمد على سائر الأمم، وجعله نبيا وآدم بين الروح والجسد في سالف القدم، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سيدنا وحبيبنا محمدا عبده ورسوله سيد العرب والعجم، المخصوص بجوامع الكلم، والمبعوث بنفائس الحكم، وعلى أهل بيته وصحابته الذين أظهروا في نصره علو الهمم.

أما بعد؛

فيقول الله تبارك وتعالى في محكم التنزيل: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٦٢).

يعتبر الإعجاز السنني في القرآن الكريم منارا هاديا لتسخير الكون بكل ما فيه من أجل فهم أشمل وأكمل للحياة، وامتلاك السبل الموصلة إلى استشراف مستقبل زاهر من خلال تلك السنن الثابتة المطردة الربانية التي تبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس المسلمين، ومن أجل إخراج المسلم من العبثية وجعله أكثر إيجابية وأكثر عطاء، وأكثر تأهلا للاستخلاف في الأرض وإعمارها.

ويتضح الإعجاز السنني في القرآن الكريم جليا في تنبيه القرآن على أن الكون والحياة والمجتمعات تحكمهم سنن إلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، وفي تأكيده وجود علاقات بين الأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج، التي تعد في الحقيقة تعبيرا عن حكمة الله تعالى ومشيئته الأزلية وقدره الذي من خلاله يدبر كل شيء في هذا الوجود.

هذا في الوقت الذي تاهت فيه البشرية -في القديم وفي العصر الحديث- وخاضت في محول العقول فتاهت عن السبيل؛ فمنهم من يمثل الأحداث التاريخية نهرا جاريا بالحضارات يصب في بحر العدم، ومنهم من يتناول وظيفة الإنسان بصفته المحرك الأساس لعوامل الصراع في هذا الكون بغض الطرف عن أي مؤثر كان، ومنهم من يلغي دور الإنسان وفاعليته ويجعله عبدا ذليلا للحتميات، ومنهم من أخضع حركة التاريخ والمجتمعات وما يدور فيها من أحداث للصدفة والعبث...

وتكمن الأهمية الكبرى لهذا النوع من الإعجاز القرآني في عناية السلف الصالح به، وحثهم وحضهم الأمة عليه؛ لأنه سبب عزتها، ومصدر وحدتها، والسبيل الموصل إلى تحقيق المجتمع العمراني الإسلامي كما كان في عهد التنزيل والخلافة الراشدة...

ورغم ما للإعجاز السنني الذي بسطه الله في القرآن الكريم وبينته السنة النبوية الشريفة- من أهمية عظيمة وأثر كبير في حياة الأفراد والأمة وواقعها إلا أنه لم يحظ بعد بمكانته المرموقة في فكر المسلمين ووعيهم، ولهذا كان الشيخ محمد عبده -رحمه الله-[١٣٨] يرجو أن يكون هناك علم مستقل للسنن الإلهية وأن يعتني المسلمون بالإعجاز السنني في القرآن الكريم كما

١٣٨-انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٤/١١٤.

اعتنوا بباقي أنواع الإعجاز التشريعي والعلمي والبياني والفقهي..

مشكلة البحث وتساؤلات الدراسة:

ما هي مرتكزات التأصيل النظري للإعجاز السنني في القرآن الكريم وآفاقه؟

وعن هذه المشكلة تتفرع التساؤلات الآتية:

- ما هو الإطار النظري للإعجاز السنني في القرآن الكريم؟
- هل قامت الأمة الإسلامية بواجبها في خدمة القرآن الكريم بالكشف عن القوانين الربانية والسنن الإلهية فيه؟
- ما هي الطرائق التي نقف من خلالها على الإعجاز السنني في القرآن الكريم؟
- ما هي النماذج التطبيقية للإعجاز السنني في القرآن الكريم.

أهداف البحث:

- خدمة الرسالة الخالدة والمعجزة الإلهية القرآن الكريم.
- تصحيح العلاقة بالقرآن الكريم فكرا ووجدانا وعملا.
- بيان الآفاق الواسعة للإعجاز القرآني والإمكانات الكبرى للاستفادة منه في كل زمان ومكان.
- تأكيد الوظيفة التربوية للإعجاز السنني في القرآن الكريم المتمثلة في صناعة القاعدة الصلبة والأنموذج المؤهل لمواصلة دور الريادة والخيرية على كل المستويات.
- توجيه الأنظار إلى أهمية الإعجاز السنني في حياة الأمة.

أهمية البحث:

يكتسب البحث أهميته في أنه من الدراسات التي تسعى إلى تأصيل الإعجاز السنني في القرآن الكريم، من خلال رصد معالمه وأسسه وتطبيقاته واستشراف آفاقه.

ويمكن توضيح هذه الأهمية من خلال النقاط الآتية:

- أن هذا البحث يكشف عن أهمية السنن الإلهية باعتبارها عنصرا أساسا في بناء الشخصية الإسلامية.
- أن هذه الدراسة تهدف إلى الكشف عن الأساليب التفصيلية والإجمالية للوقوف على الإعجاز السنني في القرآن الكريم.
- يعتبر هذا البحث إسهاما رصينا في التأصيل النظري لعلم السنن الإلهية.

منهج البحث:

البحث دراسة موضوعية تنطلق من القرآن الكريموتعود إليه، وقد اعتمدت المنهجين الاستقرائي والتحليلي، فضلا عن الاستنباطي، وذلك بتتبع آي القرآنالواردة في الإعجاز السنني، والاستعانة بكتب التفسير وبعض الدراسات المتعلقة بالموضوع، ومن ثمّ استنباط خصائصه وطرائق معرفته، فضلا عن استنباط الدلالات والمعاني المتعلقة به.

مصطلحات البحث:

التأصيل النظري: أي تأسيس العلوم على ما يلائمها في الشريعة الإسلامية من أدلة نصية أو قواعد كلية أو اجتهادات مبنية عليها...[١٣٩].

الإعجاز السنني: هو ما جاء في القرآن الكريم من سنن إلهية[١٤٠] وقوانين ربانية ثابتة ومطردة لا يحصرها مكان ولا زمان، ترتبط فيها النتائج بمقدماتها والأسباب بمسبباتها، والعلة بمعلولها. ماضية في طريقها لا تتخلف ولا تحيد ولا تنخرم، فمنها ما حدث في الغابر للأمم السابقة، ومنها ما حدث زمن التنزيل كحادثة الروم وبدر وفتح مكة، ومنها ما جاء على شكل تنبؤات مستقبلية تتحقق كلما توفرت شروطها[١٤١].

حدود البحث:

اقتصر البحث على بيان أهمية الإعجاز السنني في حياة الأمة، ودوره في تحقيق الشهود الحضاري والبناء العمراني. مع نظرة موجزة عن خصائصه، وطرائق استنباطه، وبعض تطبيقاته.

واستعان البحث في هذا -أولا وقبل كل شيء- بالآيات القرآنية، ثم بكتب التفسير ثم ببعض الدراسات والأبحاث المتعلقة بالموضوع.

هيكل البحث:

للأهمية التي يكتسيها هذا الموضوع جعلته عنوان بحثي المقدم إلى المؤتمر العالمي الأولفي موضوع: (تأصيل العلوم: الواقع والتحديات) بالسودان، وجعلته في أربعة مباحث:

أولها: للإطار النظريللإعجاز السنني والدراسات السابقة فيه:

وثانيها: لخصائص الإعجاز السنني في القرآن الكريم؛

وثالثها: للأسلوب القرآني للدلالة على السنن الإلهية؛

وآخرها: لرصد نماذج من الإعجاز السنني في القرآن الكريم.

(التغيير- التدرج-الأسباب والمسببات).

نتائج البحث وتوصياته:

- بيّن البحث أن الإعجاز السنني نوع من أنواع الإعجاز القرآني.
- كشف البحث عن العلاقة الوطيدة بين الإعجاز السنني والواقع والتاريخ.
- دعا البحث الكتاب والباحثين والمهتمين ومراكز البحث إلى العناية بعلم السنن الإلهية دراسةً وبحثاً،وتقعيداً وتنظيراً،وتطبيقاً وممارسةً..

١٣٩-التأصيل الإسلامي لعلم النفس، عبدالله بن ناصر الصبيح، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٢٢، السنة ٢٢، [٤٦٩-٥٠٦].

١٤٠- السنن الإلهية هي: أقدار الله تعالى وقوانينه وعهوده ووعوده، وكلماته التامات، التي أخضع لها جميع مخلوقاته، وعلى مقتضاها يدبر هذا الكون.

وتنقسم السنن الإلهية إلى قسمين: سنن كونية، وأخرى شرعية: فالسنن الكونية هي تلك النواميس الربانية والقوانين الإلهية الأزلية التي تضبط حركة جميع الموجودات من أجرام وكواكب ومركبات وغيرها كل ذلك في تكامل وانسجام، من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة- دون خلل أو خلف. أما السنن الشرعية فهي السنن الإنسانية والاجتماعية والتاريخية المطردة والثابتة التي أودعها الله في الحياة البشرية، إنها المبادئ الأساسية التي تحكم فاعلية الإنسان في التاريخ والمجتمع وتضبط حركة التاريخ البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله.

١٤١-الإعجاز الخبري في القران الكريم، رشيد كهوس، مجلة الفرقان، السنة: ١٥، العدد ١٤٥، جمادى الأولى ١٤٣٥هـ-اذار ٢٠١٤م، ص٦.

المبحث الأول:
الإطار النظري والدراسات السابقة

إن الحديث عن الإعجاز السنني في القرآن الكريم والسنة النبوية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات, يكون فيها المسلم حيراناً, غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده الوحيد القادر على أن يكون واعياً ومستوعباً لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث (١١٢).

وتتبين أهمية الاهتمام بالإعجاز السنني أنه يبعث الطمأنينة والوضوح في نفوس أتباع هذا الدين الإلهي, خاصة وأننا نتحدث عن هذا النوع من الإعجاز من خلال القرآن الكريم, والذي يثبت لنا تاريخ البشرية وما حل بها من أحداث ومجريات تجعل الإنسان قادراً على أن يأخذ من هذه الأحداث تجارب صالحة تفيده في رسم مستقبله وتمنعه وتحميه من الوقوع فيما وقع فيه غيره من البشر في سالف الأيام (١١٣).

وعليه، فإن العمراني البشري الذي ترنو إلى بنائه الأمة المسلمة وتشرئب له الأعناق، لن تصل إليه الأمة إلا بفقه سنني..وإن أول طريق يمر عبره هذا الفقه هو الكشف عن السنن الإلهية التي نبه عليها القرآن الكريم، وحث على إدراكها والإحاطة بها والتوسع في معرفتها بتفاصيلها وجزئياتها، والأخذ بها، والسير على سكتها، وتسخيرها على أحسن وجه..

ومن هذا المنطلق فإنتعرف هذه السنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركية التاريخ وفاعليه الإنسان فيه، ونشأة الحضارات وازدهار وبقاؤها أو انهيارها وانحطاطها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج من الركود والتخلف الحضاري وتصحيح المسار والرقي إلى مكان الصدارة والريادة..

إن فقه السنن الإلهية والتعامل معها بوعي وعلى بصيرة، من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية ووقيود الاتكالية وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددها على سكة الصواب ويبعث فيها روح الحيوية والانبعاث من جديد.

فلا ريب أن يؤدي عدم التعامل مع هذا النوع من الإعجاز القرآني بشكل صحيح وإغفاله وعدم إدراك كنهه والتقصير المعرفي به إلى استنزاف الكثير من طاقات المسلمين ومساعيهم، وتعثر خطواتهم في طريق البناء والرقي والازدهار، حتى صاروا غرضا ومرمى لسهام الغزاة الذين يتربصون بهم الدوائر من كل صوب وأوب.

ولذلك يعتبر الزيغان عن سكة الإعجاز السنني، والعدول عن كشف ما يتضمنه من عبر وعظات ونواميس مطردة تأخذ بيد الأمم إلى بر الأمان وشاطئ النجاة، وتنأى عن السقوط في المهاوي والزلات، وتوجيه البحوث لدراسته واستنباطه والاستفادة من الوقوف على معطياته مما أورثنا التأخر

١١٢-«السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل»، عماد عبد الكريم خصاوونة وخضر إبراهيم قزق، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد ١٥، العدد ٢، (٢٠٠٩م)، ص ٢١٥.

١١٣- المرجع نفسه، ص ٢١٤.

عن الركب الذي نعيشه ونعاني منه.
فالسنن الإلهية هي التي تسير حركة التاريخ وتفسر أحداثه وفق مسالك مقننة لا سبيل للخروج عليها. والمتدبر للقرآن الكريم يجده حافلا بالحديث عن هذه السنن في كثير من آياته الكريمة، وقد بينتها السنة المطهرة الصحيحة في مواضع كثيرة.
فواجب على الإنسان المسلم أن يفقه سنن الله فقها شاملا واعيا يهدي إلى سبيل الرشاد، ينفع الأمة ويكشف الغمة، وعلى ضوئه -الإعجاز السنني- وفي نوره يبني مجتمعه العمراني الإسلامي ويستنبط منهاجه.
يقول سيد قطب -رحمه الله- داعيا إلى مراعاة السنن الإلهية وإعمالها: فالنواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافاً، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها، تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام. واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق. ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين، لينالوا النصر والتمكين؛ بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول(١٤٤).
ولذلك، فإن البحث عن الإعجاز السنني في القرآن الكريم ومعرفته من الواجبات الدينية، فهو جزء من معرفة الدين نفسه، لهذا صار من اللازم تتبعُ آيات القرآن الكريم واستقراؤها وتقصي مفرداتها للوقوف على هذه السنن تمهيدا لصياغة نظرية شاملة ومتكاملة عن الإعجاز السنني.
والقرآن الكريم معجزة خالدة في بيانها وتشريعها وأحكامها ومبادئها وتعاليمها وحقائقها العلمية، وحقائقها التاريخية الخبرية، وتنبؤاتها المستقبلية، ويتجلى الإعجاز السنني في القرآن الكريم، فيما يقدمه من قراءة شاملة متكاملة للتاريخ؛ حيث يتناول الحدث التاريخي تناولا تحليليا، ويتناول الحضارة تناولا تركيبيا، ويقدم من خلال منهجي التحليل والتركيب تفسيرا شاملا متكاملا للعملية الحضارية في نشأتها واندثارها، ونهوضها وسقوطها، وموتها وبقائها..
كما يتجلى إعجازه في إرشاده للعباد إلى سنن الله في بناء الإنسان والمجتمع والأمة والعمران، وسنن النجاة والفلاح، كما يبين لهم سنن الشقاوة والعذاب والضلال وهلاك الأمم واندثار المجتمعات ليتجنبوها..
ولعل تدبر آيات القرآن الكريم وفق هذه الرؤية الشاملة الكاملةيجعلنا نقف عند المنهاج القرآني لكيفية التعامل مع الحياة الإنسانية من جوانبها كلها، ويقصر الطريق أمامنا عن طريق الاستفادة مما وقع للأمم الغابرة من ازدهار وانهيار، وقيام وسقوط، للعمل وفق سنن النهوض، وتجنب سنن السقوط..
وإن الأمة التي لا تعرف هذه السنن، ولا تسعى لفهمها والتفقه فيها وأخذ

١٤٤-في ظلال القرآن، ١/٤٥٠.

الدروس والعبر منها، أمة غير مأمونة العثار، ولن تنجع في خطواتها، ولا في بناء مستقبلها.

يقول المفكر الإسلامي محمد قطب-رحمه الله-: لابد من دراسة مستوعبة للسنن الربانية، ولابد من دراسة التاريخ من خلال تلك السنن، وإن المتدبر لكتاب الله ولسنة رسوله ﷺ، ليجد عناية ملحوظة بإبراز تلك السنن، وتوجيه النظر إليها، واستخراج العبرة منها، والعمل بمقتضياتها لتكوين المجتمع السليم المستقيم على أمر الله[١٤٥].

والجدير بالذكر هنا أننا من خلال الإعجاز السنني يمكن أن نفسر الإصابات والارتكاسات، وتوالي الهزائم، واستمرار السقوط، والانحدار، والانكسار، والتراجع، الذي يمنى به العالم الإسلامي والمسلمون بشكل عام[١٤٦].

ومن شأن هذه السنن أيضا أن توقفنا على مقومات النهوض، وأن تساعدنا على إدراك المقاصد وإبصار المخارج وتحصيل المؤهلات وامتلاك الوسائل في مسيرتنا العمرانية، ومن شأنها أن تمكننا من تصويب الحاضر وإدراك أسباب تغيير المجتمع إلى الارتقاء أو الارتكاس للاهتداء إليها والاتعاظ بها لبناء المستقبل ولتحقيق الوقاية الحضارية[١٤٧].

وتأكيدا ضرورة الجمع بين إدراك الإعجاز السنني في القرآن الكريم وتسخيره يقول الشيخ محمد الغزالي-رحمه الله-: أصبحنا نسمع بضرورة الإفادة من هذه السنن، بل لعل ذلك أصبح قناعة عند الناس بشكل عام، لكن هذه القناعة لم تجد طريقها إلى الممارسة، ولم تنتقل بمواقعنا إلى مراحل تغييرية (...) ولو أخذت أبعادا حقيقية لكانت الأمة انتقلت من الفكر إلى الفعل، فالتحول وإعمال السنن هو المختبر الحقيقي لإدراكها والقناعة بها. إن هذه القضية لم تشكل مناخا عاما يعيشه المجتمع، أو لم تحفر بعد في واقع الأمة المجرى المطلوب لسيرورتها [١٤٨].

ويقول الدكتور محمد أمحزون: لقد وجّه القرآن الكريم المسلمين نحو الوعي بعالم الشهادة، فحثهم على النظر والتدبُّر والاستقراء للكشف عن قوانين المادة وسنن الاجتماع، كما نبّه إلى أهمية التعرُّف على السُّنَن التاريخية، والإفادة من ذلك في الاعتبار وبناء الحضارة وكيفية المحافظة عليها من السقوط، وقد أرشد القرآن الكريم إلى هذه السُّنَن فذكرها نصاً في بعض الأحيان، ولم يذكرها أحياناً أخرى نصاً؛ وإنّما فُهمت من النّص دلالةً وفحوى، وذكرها تارةً مضافة إلى الله -تباركت وتقدست أسماؤه-، وذكرها تارةً أخرى مضافةً إلى أقوام.

ومن خلال السُّنَن في كتاب الله تعالى، وسنن رسوله ﷺ: نفهم التاريخ على حقيقته، ونعرف عوامل البناء، والأمن، والاستقرار، والتقدم، وعوامل الهدم، والخوف، والانحطاط، والتخلّف... ومن هنا تأتي أهمية ربط عمل الدّعاة بالجهد والعمل وفق السُّنَن التي لا تحابي فرداً على حساب فرد آخر، أو

١٤٥- حول التفسير الإسلامي للتاريخ. محمد قطب، ص٨٦-٨٧.
١٤٦- من فقه التغيير. عمر عبيد حسنة. ص٩٤.
١٤٧- رؤية في منهجية التغيير. عمر عبيد حسنة. ص٣٠.
١٤٨- كيف نتعامل مع القرآن. ص٥٣.

مجتمعاً على حساب مجتمع آخر» [١٤٩].

أما عن الدراسات السابقة في هذا النوع من الإعجاز القرآني:فإنه على الرغم من التطبيق العملي للسنن الإلهية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، فقد كانت عناية علماء الإسلام بهذا العلم أقل بكثير من عنايتهم بأنواع العلوم الأخر: الشرعية واللغوية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية. ولا شك أنهم -رحمهم الله- لم يتركوا هذا الجانب الحيوي من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ دون بيان منهم أو إغفالا -وما هم بمعصومين- ولكن كيف يدعونه وهم الذين تفننوا في استنباط العلوم، وأوسعوها دراسة وبحثا، حتى أصبح كل من جاء بعدهم عيالا عليهم، إلا القليل منها، وكيف يغفلونه وقد فنيت أعمارهم فيما دونه من العلوم؟!

والحق أنهم لم يغفلوا علم السنن بإطلاق، كما يظن ذلك من يظنه فيهم، بل بيّنوه بما يتناسب والظروف التاريخية المحيطة بهم والمناهج العلمية المتبعة في زمانهم، عن طريق لفت الأنظار إلى السنن المبثوثة في القرآن الكريم، ومن يطالع التفاسير القديمة، بدءا من تفسير شيخ المفسرين الطبري ثم تفسير ابن عطية والبغوي وابن كثير وابن حيان الأندلسي والآلوسي وأبي السعود والرازي والزمخشري وغيرهم، يقف من ذلك على الكثير من النظرات والإشارات المتفرقة هنا وهناك... أضف إلى كتب التفسير كتب التاريخ كتاريخ الطبري، والبداية والنهاية لابن كثير، والتاريخ المعتبر في أنباء من غبر للعُليمي، وتاريخ ابن الأثير، والتنبيه والإشراف للمسعودي، والعبر في خبر من غبر للذهبي، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي وغيرهم.. التي فيها إشارات قوية إلى أهمية التاريخ، وأوجه الاعتبار به، والاستلهام من أحداثه...

وعليه: فإن جهود علماء الإسلام الأوائل لم تؤسس علما مستقلا يُعنى بعلم السنن الإلهية على غرار العلوم الشرعية والعقلية الأخرى التي اجتهدوا فيها: تقعيداً وتنظيراً وتطبيقاً وممارسة.. فقد كان حضور هذا العلم ضئيلاً في مؤلفاتهم... وعذرهم في ذلك طبيعة العصر الذي عاشوا فيه، ومدى الحاجة إلى التوفر على مثل هذا اللون من الدراسات، عذرهم أنهم كانوا يعيشون في ظل أمة غالبة قاهرة قرونا من الزمان، فاشتغلوا بتفاصيل الأحكام ودقائق العلاقات، ولم تنحرف المسيرة التاريخية بهم بصورة واضحة كما هي الحال في القرون المتأخرة. ومثل تلك الأجواء لا تستثير النفوس والعقول عادة للعكوف على دراسة السنن على النمط الذي ننشده اليوم[١٥٠].

لكن رغم قلة المصنفات في علم السنن الإلهية أو الإعجاز السنني، فإننا نجد في تاريخ الأمة ثلة من علمائنا الجِلّة اشتغلوا بهذا الفن، منهم: الإمام أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا البغدادي، من علماء القرن الثالث الهجري (ت:٢٨١هـ)-رحمه الله-، في كتابه النفيس «العقوبات»، والإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت:٤٥٦هـ) في مؤلفاته، والإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ) في إحياء علوم الدين، وشيخ الإسلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية (ت:

١٤٩- «العلم بالسنن الربانية»، محمد أمحزون: مجلة البيان، العدد ١١٥، يوليو ١٩٩٧م، ص ٥٠.

١٥٠-انظر: سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، حسن بن صالح الحميد، ص٤٩ وما بعدها.

٥٧٢٨) في فتاويه ورسائله، وفي كتابيه:»الرد على المنطقيين» و»النبوات» وغيرها. والإمام شمس الدين حمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن قيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ) في جل مصنفاته. ومؤرخنا الحكيم مؤسس علم الاجتماع والعمران عبد الرحمن بن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) في مقدمته وتاريخه. ومن المعاصرين الشيخ جمال الدين الأفغاني (ت: ١٣٢٣هـ) في العروة الوثقى، وتلميذه الشيخ محمد عبده (١٣٢٣هـ) في مؤلفاته، وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا (ت:١٣٥٤هـ)في مقالاته وتفسيره. ومالك بن نبي (ت: ١٣٩٣هـ) في حديثه عن سنن النهضة والحضارة، والشهيد سيد قطب (ت: ١٣٨٥هـ) في تفسيره «في ظلال القرآن» وفي غيره من مؤلفاته، والشيخ محمد أبو زهرة ومصطفى المراغي ومحمد متولي الشعراوي ومحمد المكي الناصري والطاهر بن عاشور ووهبة الزحيلي في تفاسيرهم. ومحمد قطب وعبد الحليم عويس ويوسف القرضاوي وجودت سعيد وخالص جلبي ومحمد عمارة... في كتاباتهم.

أضف إليه ما ظهر في الآونة الأخيرة من دراسات وبحوث وكتب رصينة ورسائل جامعية موفقة في الإعجاز السنني وعلم السنن الإلهية.

المبحث الثاني:

خصائص الإعجاز السنني

إن خصائص الإعجاز السنني تحدد شكل مساره، وتبين كيف تسير هذه السنن عبر وسائل مضبوطة، فلا يمكن -مثلا- فهم الإعجاز السنني بعزله عن ربانيته، ولا يمكن فهمها كذلك دون وسطيته...

والكون كله يسير وفق سنن إلهية كاملة لا تبديل لها ولا تحويل، فليس هناك شيء واحد في هذه الحياة يحدث اعتباطا وعشوائيا، وإنما يجري كل شيء فيها وفق سنن الله تعالى التي لا تنخرم ولا تحيد ولا تتخلف، ولا تحابي أحدا من الخلق، ولا تستجيب لأهواء البشر وطموحاتهم الشخصية ومآربهم الفانية.

وعليه، فما دام هذا الكون بما فيه خاضعا لسنن الله تعالى، وما دامت سنن الله هي قدره الذي على مقتضاه يدبر ملكه، فإن لها خصائص ربانية تبين عدالتها وجريانها على جميع البشر، واستمرارها على مدى الأزمان.

تلك الخصائص وإن تعددت وتنوعت فإنها تنبثق من خصيصة الربانية وترجع إليها، ذلك بأن القوانين البشرية التي يسطرها البشر لأنفسهم بعيدا عن هدي الله عز وجل تحتاج دائما إلى المراجعة والتطوير وإعادة الصياغة والتحرر من قواعدها ومقوماتها، تتعرض هذه القوانين لكل هذا لأنها من صنع البشر. أما قانون الله وناموسه الكوني فثابت لا يتغير، وضوابطه لا تتعطل ولا تتحول، لأن واضعه هو خالق البشر الذي يعلم ما كان وما يكون وما لو كان كيف يكون.

فهذا الكون بما فيه يخضع لنظام عادل وضوابط ربانية، فكل شيء يدور في فلكه ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾(سورة الفرقان: من الآية ٢)، فلابد لكل شيء من فلك يدور فيه، ولا بد لهذا القانون من ضوابط وإلا انتهى الأمر إلى الفوضى وإلى الدمار.

ومن ثم كان الإعجاز السنني يتسم بالربانية لا يعتريها النقص ولا التغير ولا التطور فهي صالحة لكل زمان ومكان، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فأول تلك الخصائص:

١ -الربانية :

إن كون ربانية السنن الإلهية (الإعجاز السنني) يميزها عن باقي التصورات الفلسفية والمعتقدات الوثنية التي ينشئها الفكر البشري وتصوراته الخيالية. وكون سنن الله ربانية المصدر، يعني أنها مرتبطة بالله تعالى. منه تستمد وبنوره تستضيء، وهذا ما يفرغ عليها قدسية لا نظير لها، لأن هذه السنن صادرة من صاحب الخلق والأمر في هذا الكون، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الأعراف: من الآية ٥٤)، ولم تصدر من البشر الذين يحكمهم القصور والعجز، والتأثر بمؤثرات الزمان والمكان.

ونفهم من هذه الخصيصة أن الله تعالى وتقدس هو المدبر الحقيقي لهذا الوجود بمشيئته المطلقة، وتدبيره الحكيم.

وهذه الربانية التي تتميز بها سنة الله هي عكس ما يعتقده اتجاه التفسير الإلهي للتاريخ الذي تمثله مدرسة المفكرين اللاهوتيين النصارى.

٢- الثبات(١٥١):

بما أن سنن الله ربانية المصدر، وليست نتاج فكر بشري يعتريه النقص، فإنه من هذه الخصيصة تنبثق باقي الخصائص، فتكون سنن الله ثابتة لأنها تقتبس نورها من مشكاة ربانية؛ وثبات سنة الله يعني استقرارها ودوامها؛ فلا تتبدل ولا تتحول، يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾(سورة الإسراء: ٧٧)، ويقول الله عز اسمه:﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ (سورة الفتح:٢٣).

ولا يعني هذا الجمود في قالب حديدي وإنما يعني الحركة -التي تعتبر قاعدة في التصميم الكوني والحياة البشرية- في مضمار هذه الخصيصة حتى لا تسود الفوضى والحيرة في الكون، بل تلك الحركة الكونية التي تدور في دائرة الثبات تضفي عليها طمأنينة لا نظير لها، وتضمن للحياة البشرية مزية التناسق مع النظام الكوني المتناسق والمتماسك، ويقيها شر الفوضى واتباع أهواء البشر التي لا يضبطها قانون سوى تحقيق مصالحها وطموحاتها الشخصية.

ولا شك أنه بثبات السنن الإلهية واستمرارها تثبت النفس وتطمئن ويحيطها الاستقرار، الذي يكون توطئة لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيَعتبر المُبصر ويحذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير به قدماه فيُحْجِمُ أو يُقْدِمُ -مستندا إلى ظنه- لمصيره ومآله في دنياه وأخراه.

والهدَف الثاني من ثبات السنن الإلهية وعدم تغييرها هو سقوط القول بـ(الصدفة) أو (الطبيعة) فيما لا يستطيع العقل البشري الوقوف على علله وأسبابه، إذ لو لم تكن السنن الجارية قائمة على الثبات لاتسع المجال للعبثية ولبسط القول بالصدفة في نظام حركة الكون والأحياء والأنفس.

١٥١-انظر: السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، ص٨١-٨٢.

ولو لم تكن السنن الإلهية ثابتة على الحال المذكور، لما كان في هذا الكون توازن ولا استقرار ولاستحال استمرار الحياة، ولكانت الفوضى حينئذ هي السمة السائدة.. وهذا يتنافى مع الواقع المشهود الذي تدلنا كل صغيرة وكبيرة فيه على آيات التوازن والاستقرار التي تقود إلى استمرار الحياة نحو أجلها المقدر لها.

ونحمد الله الذي وقانا شر الفلسفات المادية -التي لا تثبت على حال- الجاهلة بحقائق هذا الكون، التي مزقت الفكر الغربي شر ممزق، وتركته يضل السبيل في كهوف الجدليات المظلمة...[١٥٢].

٣- الاطراد:

الاطراد: اطرد الأمر تبع بعضه بعضا وجرى واطرد الحد تتابعت أفراده وجرت مجرى واحدا كجري الأنهار [١٥٣].

وعليه، فالمقصود باطراد سنن الله تعالى تتابع حصولها بانتظام، أو تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها[١٥٤]، يقول الله جل ذكره: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (سورة فاطر: من الآية٤٣).

وهكذا نجد أن اطراد السنن الإلهية يعني أنها ليست عشوائية قائمة على أساس الصدفة والاتفاق.

ولهذا قص علينا القرآن الكريم قصص الغابرين وما حل بهم من جراء ما اقترفوه من مخالفات للأوامر الإلهية، لنأخذ الدروس والعبر، ونرجع إلى الصراط السوي، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطراد سنة الله لما كانت هناك دعوة للسير في الأرض والوقوف على آثار السابقين وأخذ العبرة والدروس مما أصابهم. يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (سورة آل عمران:١٣٧)،ويقول جل وعلا: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (سورة الحشر: من الآية٢).

يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي -رحمه الله: إنه لولا أن اطراد العادات[١٥٥] معلوم لما عرف الدين من أصله، فضلا عن تعرف فروعه؛ لأن الدين لا يعرف إلا عند الاعتراف بالنبوة، ولا سبيل إلى الاعتراف بها إلا بواسطة المعجزة، ولا معنى للمعجزة إلا أنها فعل خارق للعادة، ولا يحصل فعل خارق للعادة إلا بعد تقرير اطراد العادة في الحال والاستقبال كما اطردت في الماضي، ولا معنى للعادة إلا أن الفعل المفروض لو قدر وقوعه غير مقارن للتحدي لم يقع إلا على الوجه المعلوم في أمثاله، فإذا وقع مقترنا بالدعوة خارقا للعادة، علم أنه لم يقع كذلك مخالفا لما اطرد

١٥٢-الضوابط العامة لسنن الله (١). رشيد كهوس أبو اليسر. مجلة الداعي. السنة: ٣٣. العدد: ١١. ذو القعدة ١٤٣٠هـ-نوفمبر ٢٠٠٩م.

١٥٣-كتاب الكليات. لأبي البقاء الكفوي. فصل الألف والطاء. ص١٩٩.

والاطراد يضم مجموعة من المعاني «لأنه يضم أجزاء المحدود ويجمعها، ويتبع المحدود بحيث يوجد حيث وجد ويستقيم بذلك ويستمر عليه». المعين في تفسير كلام الأصوليين. عبد الله ربيع عبد الله محمد. ص٥٢.

١٥٤- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق. أحمد كنعان. ص٧٦.

١٥٥- يقصد بالعادات: السنن.

إلا والداعي صادق [١٥٦].

وبصدد اطراد السنن الإلهية ذكر ابن قيم الجوزية كلاماً نفيساً جاء فيه: لهذا يذكر الشارع العلة والأوصاف المؤثرة والمعاني المعتبرة في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية؛ ليدل بذلك على تعلّق الحكم بها أين وجدت، واقتضائها لأحكامها، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض اقتضاءها، ويوجب تخلف أثرها عنها [١٥٧].

وهكذا فإن السنن الإلهية سنن واقعة آتية من الأزل، فهي باقية وماضية إلى الأبد لا تهرم أبدا، ولا يصيبها الموت، كما تهرم القوانين المدنية وتموت. فسنن الله مطردة تشمل الماضي والحاضر والمستقبل، واطرادها لا يعني حتميتها. وهنا يمكن القول بأنه بالرّغم من ثبات سنن الله في الكون واطرادها، فالمشيئة الإلهية طليقة لا يَرِدُ عليها قيد ما، مما يخطر على فكر البشر البعيد عن أصول التوحيد الإسلامي. وهو سبحانه وتعالى يبدع كل شيء ويخلقه بمجرد توجّه مشيئته إلى إبداعه وخلقه. فليس هناك قاعدة ملزمة ولا قالب مفروض مُلْزم للمشيئة الإلهية في الفعل، فهو عز وجل يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء، لا راد لأمره، ولا معقّب لحكمه [١٥٨].

والحاصل أن جريان سنن الله وتحققها يكون بقضاء الله ﷻ وقدره وحكمته، يستوي في ذلك سنن الله الجارية[١٥٩] والخارقة[١٦٠]. وإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئا فإنه لا ينفذه بإبطال سننه المطردة وأقداره الماضية في خلقه، ولكن بالترجيح أو التوفيق بينها، كما قال جل ثناؤه: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾(سورة طه: من الآية٤٠) وهذا ما يخالف مبدأ الحتمية وينقض مزاعم القائلين بها.

٤- العموم[١٦١] :

المقصود بعموم السنن الإلهية، كون حكمها يسري على الجميع بدون استثناء: لا تستحيي من أحد ولا تحابي أحدا، بغض النظر عن كونه مؤمنا أم كافرا، أو أبيض أو أسود، أو عربيا أو عجميا، يعيش في رقعة إسلامية أو غير إسلامية، غير مقتصرة على هذا أو ذاك، الكل سواسية أمام حكمها، وصدق الله تبارك وتعالى القائل: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً﴾(سورة النساء:١٢٣)، والقائل أيضا:﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(سورة القمر:٤٣)، فالقضية ليست انتماء إلى رقعة إسلامية، أو جنس عربي أو غير ذلك، وإنما القضية قضية عمل وجزاء، وفي هذا السياق يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله-: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت

١٥٦-الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي، ٢/٥٦٨.

١٥٧- إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١/١٩٦-١٩٧.

١٥٨-السنن الإلهية،مجدي عاشور، ص١٠٥.

١٥٩- معنى كونها سنن الله جارية أنها يمكن أن تتحقق -بقدر من الله عز وجل- كلما توفرت شروطها ومقوماتها، وتم المواجهة بمقتضاها.

١٦٠- السنن الخارقة: اي بالنسبة للبشر يعتبرونها خوارق، أما عند الله تعالى فليس عنده شيء اسمه خوارق، فكل شيء يتحرك بإرادته ومشيئته وحكمته العادلة وإن بدا لنا أمرا خارقا للعادة.

١٦١-قال الشيخ صديق خان القنوجي في تعريفه الاصطلاحي للعام:»هو اللفظ المستغرق لجميع ما يصلح له بحسب وضع واحد دفعة». الجامع لأحكام وأصول الفقه، ص٢٠١.

كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة [١٦٢].

وعلى الرُغم من ذلك فالغاية من ذكر أحوال الأمم الغابرة هي أن تترسخ السنة في نفوس المؤمنين، وأن يفهم الناس أن الآخر سيُفعل به ما فُعل في الأول حين يسير في طريقه. وكل تلك القصص والأخبار تتلوها تعقيبات تؤكد هذه السنة والقاعدة التي صارت علما [١٦٣].

ومن هنا، فلولا عموم سنة الله واطرادها وثباتها لما ذكرت لنا قصص الأمم السابقة، إذ ما يجري عليها يجري على غيرها في باقي الأزمان والأمصار، فأي أمة تنكبت عنها -أي سنة الله- لقيت جزاءها عاجلا أو آجلا، وهذا ما سجله القرآن الكريم في غزوة أُحد، لما أخطأ الرماة وخالفوا الأوامر النبوية لقوا جزاءهم؛ قال الحق جل ذكره: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ سورة آل عمران:١٦٥)، فلا محاباة ولا تمييز أمام سنة الله.

كما خصص القرآن الكريم جانبا كبيرا من سوره لعرض قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابا أو سلبا: حين اختارت لنفسها طريقا معينا، ولينبهنا كذلكعلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية.

قال الحق جل وعلا: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩)﴾(سورة هود). فسنن الله لا تحابي أحدا وقصص القرآن كثيرة: قصة قوم نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى... لما خالفوا أنبياءهم حصدتهم سنة الله وكانت لهم بالمرصاد...

وهكذا فإن ما وقع للأمم والمجتمعات الماضية التي تكررت وقائعها رغم اختلاف أشكالها وتباين الظروف الزمنية والمكانية التي وقعت فيها، يسجل القرآن الكريم وجود قانون أو سنة كونية مطردة تحكم سير هذه المجتمعات كما دل على ذلك استنطاق جزئياتها إذ يصرح القرآن أن لله سننا في الأمم والجماعات، يدعو إلى التفكير فيها والتدبر في مغزاها واكتشاف دلالتها الاجتماعية ولمس معانيها التاريخية.

فالحديث القرآني يبين أن هناك حوادث تاريخية متشابهة في دلالتها ومضمونها وإن اختلفت في شكلها، وهذا التماثل هو الذي يضمن لهذه الحوادث نوعا من التكرار والاطراد، ومن ثم يخبر القرآن الكريم أن هذا الاطراد غير قابل للتبديل والتحويل.

وهذه السنن لها وظيفة اجتماعية هامة فهي تكشف عن أسباب الخلل وتزيل الستار عن أسباب الدمار وتثير في الإنسان فطرة الخير والصلاح، وتدعوه إلى الاستقامة ومراجعة مواقفه ووقفاته والعمل على ضبط حركاته. ومن جهة تكشف هذه السنن عن تجربة تاريخية كاملة تجد فيها الشعوب

١٦٢-الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، ٢٨/٦٣.

١٦٣- اقرأ وربك الأكرم، حودت سعيد، ص١٣٢.

والجماعات ما ينير طريقها ويفتح بصيرتها للوقف على نتائج اختيارها [١٦٤].
وبناء على ذلك: فإن النواميس التي يتحدث عنها القرآن الكريم تتميز بأنها نواميس مطلقة صالحة لكل زمان ومكان، متى توفرت مقوماتها وتحققت شروطها الموضوعية في الزمان والمكان، فهي عامة.

٥- الواقعية[١٦٥]:

فإذا كانت سنن الله ربانية المصدر، فيكون طبيعيا أن تكون واقعية، تتعامل مع حقائق موضوعية ذات وجود حقيقي، وأثر واقعي إيجابي، ومع الواقع المشهود، لا مع تصورات عقلية مجردة، ولا مع مثاليات خيالية لا مقابل لها في حياة الناس ولا وجود.

ثم إن الناموس الذي يضعه الله تبارك وتعالى للحياة البشرية يحمل طابع الواقعية كذلك، لأنه قابل للتحقيق الواقعي في الحياة البشرية بأسرها.. وبمعنى آخر: فكون سنن الله واقعية: ينفي عنها الخيال، ويجعلها مرتبطة ارتباطا وثيقا بالواقع وما يدور فيه، فهي لا تنفصل عنه تماما، وهكذا تأتي سنن الله لا لتسبح في بحار الخيال، ولا لتحلّق في أجواء المثالية المُجنّحة، فتفرض إنسانا لا وجود له في الواقع، كما صنع الفارابي في مدينته الفاضلة وأفلاطون في جمهوريته الخيالية، وكما تخيّلت الشيوعية المادية الغافلة عن الله والدار الآخرة في أذهانها عن المجتمع الذي تنعدم فيه الفروق والطبقية وتزول الملكية، ولا يحتاج إلى دولة ولا قضاء ولا شُرطة ولا سجون!.

وهنا يتضح لنا أن سنن الله تفسر أحداث الواقع أفضل تفسير وأبينه. نزل القرآن منجما حسب ما اقتضته الضرورة الظرفية، وجاء يسنن قوانين خضعت لها كل ظروف الزمان والمكان.

وإذا ما أخذنا سنة من السنن وعرضناها على الأحداث المعاصرة مثلا تبين بما لا مجال للشك فيه بأن الغرب بفلسفاته الاجتماعية والعلوم الإنسانية ما استطاع فك لغز ترابط الأحداث، وعوامل الصراع السياسي، وذلك لإعراضهم عن سنن الله [١٦٦].

ولهذا فلم تنس السنن الإلهية في توجيهاتها، وقوانينها واقع الكون والحياة، وواقع الناس بكل ظروفه وملابساته. لأن تلك السنن مصدرها صاحب الخلق والأمر الذي يعلم كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، لذلك جاءت تلك السنن منضبطة بهذا الضابط تدل الإنسان على ما يصلحه ويرقى به زمرة المرضيين، وتحذره من الفساد وما يهبط به إلى الحضيض.

تلك إذن هي واقعية السنن لا تكلف الناس شططا، ولا ترهقهم عسرا، ولا تجعل عليهم حرجا، بل ترشدهم إلى سواء السبيل، تعالجهم إذا مرضوا وتساعدهم على الشفاء لمن أراد الشفاء.

١٦٤- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، ص١٨٩-١٩٠.
١٦٥-نظر: السنن الإلهية في السيرة النبوية، كهوس، ص٩٣.
١٦٦- منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، محمد جابري، ص٨٥.

٦- الشمولية[١٦٧]:

فسنن الله ربانية المصدر وهي من أمر الله، فلا غرو أن يكون طابعها الشمول، وهنا نذكر مجموعة من الآيات الإلهية حول هذه الشمولية: قال الحق جل وعلا: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾(سورة الرعد: ٨)، وقال عز وجل: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾(سورة الطلاق: ٣)، قال الشيخ أبو السعود:» أي تقديراً وتوقيتاً أو مقداراً وهو بيانٌ لوجوب التوكل عليه تعالى ، وتفويض الأمر إليه لأنه إذا علمَ أنّ كلّ شيء من الرزق وغيره لا يكونُ إلا بتقديره تعالى لا يبقى إلا التسليمُ للقدرِ والتوكلُ على الله تعالى[١٦٨].

وقال عز سلطانه:﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(سورة يس: من الآية ١٢) :قال الشيخ البغوي: قوله تعالى ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ﴾ حفظناه وعددناه وبيناه، ﴿فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ [١٦٩].

والآيات التي تدل على شمولية السنن كثيرة، تلك الشمولية التي تعني أن السنن الإلهية جامعة لا تقبل التجزئة، وشاملة لكل شؤون الحياة ولكل ميادين النشاط البشري، ولكل القضايا الكبرى في هذا الكون، لا تستثني مجالا من مجالات الحياة أو جانبا من جوانبها، وليست شمولية مقتصرة على زمن معين وعصر مخصوص، بل شمولية تستوعب الزمن كله، وتستوعب جوانب الحياة كلها، وتستوعب الإنسان كله في الماضي والحاضر والمستقبل.

إنها سنن الله التي جاءت بنواميس شاملة جامعة مانعة، وأخرى مفصلة تفصيلا جزئيا دقيقا؛ تشمل الإنس والجن والملائكة وكل المخلوقات من الدواب والهوام.

فما من ناحية من نواحي الحياة والكون، ومجال من مجالاتهما، إلا وتناولتها السنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية بالنص والفحوى، وميّزت فيها الخير من الشر، والصحيح من الفاسد، والحق من الباطل، والصدق من الكذب، والطيب من الخبيث، والغث من السمين، في صورة شاملة وكاملة لنظام الحياة في الإسلام الذي يجب أن يقوم على الخير وتنميته، وتجنب الشر والعمل لاستئصاله.

تلك الشمولية تتمثل في صور شتى؛ أكبرها رد هذا الوجود كله.. بنشأته ابتداء، وحركته بعد نشأته، وكل انبثاقة فيه، وكل تحور وكل تغير وكل تطور. والهيمنة عليه وتدبيره وتصريفه وتنسيقه... إلى إرادة الذات الإلهية السرمدية الأزلية الأبدية المطلقة.. هذه الذات. المريدة، القادرة. المطلقة المشيئة، المبدعة لهذا الكون، ولكل شيء فيه ولكل حي، ولكل حركة، وكل انبثاقة، وكل تحور، وكل تغير، وكل تطور. بقدر خاص.. وبمجرد توجه الإرادة..

فالله سبحانه هو الذي أنشأ هذا الكون ابتداء، وهو الذي يحدث فيه بمشيئته كل تغيير جديد، وكل انبثاق وليد.. [١٧٠].

١٦٧-انظر: السنن الإلهية في السيرة النبوية. كهوس. ص٩٤.

١٦٨- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم. ٨/٢٦٢.

١٦٩- معالم التنزيل، ٧/ ١٠.

١٧٠- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته. سيد قطب ص٩٦.

ثم إن هذا الشمول يتناول كل قضية من القضايا بكلياتها وجزئياتها بصورة كاملة جامعة، وبسعة ودقة وتفصيل، لا يحتاج إلى العون من التصورات البشرية المنحرفة الضالة التي صدت الإنسان عن طريقه، وعقدت مسيرته في معرفة ما يتسم به هذا الكون من دقة عميقة، وشمولية واسعة... وتفسير جامع ومفصل تدل على وحدانية الخالق ﷻ والإقرار له وحده بالعبودية، وإفراده بالألوهية.

٧- التوازن[١٧١]:

يقول الحق جل ثناؤه:﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾(سورة الملك: من الآية ٣)؛ نقصد بالتوازن ذلك التناسق الفريد في الآفاق؛ في السموات والأرض، في كل المخلوقات. ذلك بأن هذا الكون ومكوناته تعمل بانتظام وتعاون في خدمة غاية مشتركة. فالكواكب والأفلاك تسير في مسارها المحدد لها دون أدنى خلل أو اضطراب، فهي تتحرك في مداراتها منذ خلقها الله وهي كذلك لا تتصادم ولا تخرج عن مسارها وخطها المرسوم.

فالكون كله بما فيه من كواكب ونجوم وأفلاك ومجرات يسير ضمن سنن الله التي أودعها الله فيه، فهو لا يملك أن يتقدم عليها أو يتأخر ولا يملك أن يعدل فيها أو يغير، أو يبدل ويحول، وإنما هو يسير وفق الناموس الإلهي الذي ارتضاه الله ﷻ له، يسير على مقتضى إرادته ومشيئته ﷻ:فهو مستسلم لأمر ربه خاضع له لا إرادة له ولا اختيار له[١٧٢] ولا اختيار فيما قدره الله للكون من الحركة والسكون.

فلا غرو أن نرى هذا التوازن الدقيق في خلق الله، وفي أمر الله جميعا، فهو صاحب الخلق والأمر. فظاهرة التوازن، تبدو فيما أمر الله به، وشرعه من الهدى ودين الحق، أي: في نظام الإسلام ومنهجه للحياة، كما تبدو في هذا الكون الذي أبدعته يد الله فأتقنت فيه كل شيء.

ننظر في هذا العالم من حولنا فنجد الليل والنهار، والظلام والنور، والحرارة والبرودة، والماء واليابس، والغازات المختلفة، كلها بقدر وميزان وحساب، لا يطغى شيء منها على مقابله، ولا يخرج عن حده المقدر له. وكذلك الشمس والقمر والنجوم والمجموعات الكونية السابحة في فضاء الكون الفسيح، إن كلاً منها يسبح في مداره، ويدور في فلكه، دون أن يصدم غيره، أو يخرج عن دائرته [١٧٣].﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(يس: ٤٠).

وعليه، فالقرآن يتحدث عن سنن الله العامة في الكون على أنها دعامة النظام الكوني المتماسك بوشائج التوازن الإلهي الذي يحكم به هذا النظام، فهذا الترابط المحكم بين عوالم الكائنات علويها وسفليها، وهذا التنسيق بين آحاديها ومجموعاتها، وهذه الأوضاع المنسجمة التي تتراءى في وضع كل كائن في مكانه من التركيب الكوني، وهذا الاتساق في تقدير صلة كل عنصر من عناصر الكون بسائر العناصر –هو الإطار الذي تجمعت فيه الخطوط التي تصور سنن الله التي يتحقق بها التوازن بين جميع المخلوقات.

١٧١-انظر: الضوابط العامة لسنن الله (٢)، أبو اليسر رشيد كهوس، مجلة الداعي، السنة: ٣٣، العدد ١٢، ذو الحجة ١٤٣٠هـ-ديسمبر ٢٠٠٩م.

١٧٢- هذا فيما يتعلق بالأجرام والكواكب؛ أما الإنسان فقد تركت له -سنن الله- الحرية الكاملة في أن يختار لنفسه ما يشاء، بينت له طريق الهدى وبينت له كذلك طريق الضلال وتركت له حرية الاختيار لكنه في الأخير يتحمل نتائج ما يختار.

١٧٣- الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، ص١٢٨.

والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبر بها الكون، وعليها أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذي قامت به السماوات والأرض، وهو الحق الذي خلقت به الحياة.

وبهذا يرسم القرآن العظيم صورة للنظام الكوني في نماذج من المخلوقات، يستبين منها أن الكون كله خاضع في نظام سيره وتركيب عناصره لسنن محكمة وحاكمة، مترابطا بوشائجها في وحدة قائمة على اتساق في وضع وتركيب كل كائن بما يهيء له القيام بأداء ما خُلق له من المنافع والمصالح، ما دام في موضعه من نظام الكون العام. وهذا التماسك والاتساق بين ذرات الكون هو ما نعنيه بالتوازن المحكوم بسنن الله في هذا الكون العظيم [١٧٤].

هذا جانب، والجانب الآخر في التوازن هو التوازن بين المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية.. فالمشيئة الإلهية طليقة، لا يرد عليها قيد ما، مما يخطر على الفكر البشري جملة. وهي تبدع كل شيء بمجرد توجهها إلى إبداعه. وليست هنالك قاعدة ملزمة، ولا قالب مفروض تلتزمه المشيئة الإلهية، حين تريد أن تفعل ما تريد: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠).

وفي الوقت ذاته شاءت الإرادة الإلهية المدبرة أن تتبدى للناس -عادة- في صورة نواميس مطردة، وسنن جارية، يملكون أن يرقبوها، ويدركوها، ويكيفوا حياتهم وفقها، ويتعاملوا مع الكون على أساسها.. على أن يبقى في تصورهم ومشاعرهم أن مشيئة -مع هذا- طليقة، تبدع ما تشاء، وأن الله يفعل ما يريد، ولو لم يكن جاريا على ما اعتادوا هم أن يروا المشيئة متجلية فيه، من السنن المقررة والنواميس المطردة. فسنة كذلك -وراء السنن كلها- أن هذه المشيئة مطلقة، مهما تجلت في نواميس مطردة وسنن جارية- ومن ثم يوجه الله الأبصار والبصائر إلى تدبر سننه في الكون، والتعامل معها، والنظر في مآلاتها- بقدر ما يملك الإدراك البشري- والانتفاع بهذا النظر في الحياة الواقعية [١٧٥].

٨- الوسطية[١٧٦]:

إن الوسطية في كل شيء من أهم ما تميز به الإسلام عن غيره من الشرائع السابقة والقوانين الوضعية، ويقصد بها الاستقامة وعدم الحيدان[١٧٧]، كما يقصد بها التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، أو التوسط بينهما؛ بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ويحيف عليه، ولا يأخذ أحدهما الحق أكثر من الآخر ولا ينفرد بالتأثير ويطرد الطرف المقابل.

وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ، أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ، وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ سورة الرحمن: ٧-٩)، نلمح إشارة قوية إلى الوسطية، فلا وكس ولا شطط، ولا إفراط ولا تفريط،

١٧٤- السنن الإلهية، لمجدي عاشور. ص٨.

١٧٥- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، ص١٢٤.

١٧٦-انظر: السنن الإلهية في السيرة النبوية، ص٩٨-٩٩.

١٧٧- الحيدان: مصدر قولك: حاد عن الطريق حَيْدانا وحَيْدا وحَيْدة وحِيادا وحُيودا ومحيدا وحَيْدودة : إذا مال عنه.

ولا غلو ولا تقصير، في السنن الإلهية.
لقد صان الله قانونه وناموسه الكوني من الاندفاعات هنا وهناك، والغلو هنا وهناك، والتصادم هنا وهناك.. هذه الآفات التي لم يسلم منها أي تصور آخر. سواء التصورات الفلسفية، أو التصورات الدينية التي شوهتها التصورات البشرية، بما أضافته إليها، أو نقصته منها، أوّلته تأويلا خاطئا، وأضافت هذا التأويل الخاطئ صلب العقيدة [١٧٨].
فالوسطية من مميزات هذه الأمة: وتتجلى هذه الوسطية في كل شيء: فمثلا ذم الله البخل لكنه ذم كذلك الإسراف، وجعل الإنفاق في سبيل الله هو المطلوب شرعا. قال الحق جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ سورة الفرقان: ٦٧).
وكل نهج خالف خصيصة الوسطية برئ منه دين الله، ولئن أشرك كفار قريش مع الله وجعلوا له أندادا وأنكروا الإله الواحد، فقد غالت أيضا اليهود فقالت عزير ابن الله، وغالت النصارى فقالوا الله ثالث ثلاثة وقالوا المسيح ابن الله -تعالى الله وتقدس عما يقول المفترون المضلون علوا كبيرا.
وجاءت شريعة الإسلام بالحنفية السمحة، والوسطية والاعتدال، وبالقول الفصل الذي يعلو ولا يعلى عليه.
كيف لا تتسم السنن الإلهية بخصيصة الوسطية، وهي مستمدة من كلام الله تعالى، على عكس ما نراه في أي نظام يصنعه البشر الذي لا يخلو من التفريط أو الإفراط؛ ذلك بأن من المعضلات التي لم تنجح القوانين الوضعية في حلها: التطرف في التشريع، فبعض القوانين تجنح إلى أقصى اليسار، وبعض آخر يجنح إلى أقصى اليمين. وقلما يوفق واضعوا القوانين البشرية إلى التوسط والاعتدال في قوانينهم، ذلك أن الوسطية ليست بالأمر الميسور الهين.
لكن السنن الإلهية الربانية المصدر سلكت طريقا وسطا من غير تفريط ولا إفراط؛ فلا هي تضيق الخناق على الناس حتى تملها نفوسهم وتنفر منها قلوبهم. ولا هي أرخت لهم العنان في السهولة حتى تغرق النفوس في أوحال شهواتها وبراثين ملذاتها، وتبلغ منتهى هواها ومآربها.
هكذا تميزت سنن الله بالوسطية: بالاعتدال والتوسط دون إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وصدق الله جل وعلا القائل في كتابه الحكيم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة: من الآية١٤٣).

٩- الأجل[١٧٩][١٨٠]:

قال الحق عز سلطانه: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ (سورة الرعد: من الآية٣٨)؛ أي: لكل كتاب أجل قُدِّم الخبر هنا، ولو أخر لتوهم السامع أنه صفة، أقول: هذا ما ذهب إليه الضحاك والفراء حيث قالا: فيه تقديم وتأخير والمعنى: لكل كتاب أجل، وقد تعقب أبو حيان هذا القول قائلاً: ولا يجوز ادعاء

١٧٨- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، قطب، ص١١٩.
١٧٩- الأجل: المدة المضروبة للشيء. مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة: أجل، ص٦٥.
١٨٠-انظر: السنن الإلهية في السيرة النبوية، ص١٠٠.

القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه، إذ ثم أشياء كتبها الله- تعالى- أزلية كالجنة ونعيم أهلها، لا أجل لها .

ولهذا فإن الله تبارك وتعالى قيد كل شيء في هذا الوجود بقدر معلوم إلى أجل معلوم، فيكون معنى الآية: أن لكل أمر قضاه الله كتاباً وأجلاً قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر.

والأجل يختلف باختلاف الأشياء، والسبب الذي أجلت له. لكن لا ينفك عن الزمن والأجل، ومن هنا كان عامل الزمن ضابطا من ضوابط السنن الإلهية (١٨١).

وعليه: فنلمح مما سبق أن أجل كل شيء يختلف عن الآخر: فمنه ما يعد بالشهور نحو قوله جل وعلا:﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾(سورة الحج: من الآية ٥)،ومنه ما يقاس بالعمر كما جاء في قوله تعالى وتقدس:﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا﴾(سورة آل عمران: من الآية ١٤٥)، وقوله عز من قائل:﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(سورة المنافقون: ١١)، ومنها ما يدوم بدوام الدنيا كقوله تبارك وتعالى:﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾(سورة لقمان: ٢٩).

ولولا اتسام سنن الله بهذه الخصيصة للحق بالكافرين العذاب في أول وهلة، قال الحق عز وجل:﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(سورة العنكبوت: من الآية ٥٣)، وقال الحق جل في علاه:﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾(سورة فاطر: ٤٥).

هكذا ترتبط سنن الله بالأجل؛ فلكل شيء أجل، فإذ جاء أجله فلا يتقدم ولا يتأخر: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(سورة نوح: من الآية ٤).

المبحث الثالث:
أساليب القرآن في الدلالة على الإعجاز السنني

اهتم القرآن الكريم ببيان السنن الإلهية اهتمامًا عظيمًا، وتعددت أساليبه في ذلك بين الأسلوب المباشر بالتصريح بلفظ السنة تارة، وبين الأسلوب غير المباشر تارة أخرى بحيث لا يذكر لفظ السنة نصًا؛ وإنما يفهم من الآية دلالة وفحوى، وذلك بترتيب نتيجة ما بناءً على شرط معين أو خبر معين، أو بذكرها في سياق قصة معينة أو في الحديث عن شأن من شؤون الكفار أو الأمم السابقة. أو في سياق الحكم التكليفي الشرعي..

وبناء على ما سبق يمكن إجمال أساليب القرآن الكريم في بيان الإعجاز

١٨١- التجديد في دراسة الحديث النبوي الشريف على نور السنن الإلهية، محمد جابري، ص١٢٢.

السنني وعرضه له فيما يأتي:

أولا:منهج القرآن في عرض الإعجاز السنني على وجه التفصيل

لابد لمن أراد معرفة الإعجاز السنني في القرآن الكريم أن يقف مع النص القرآني وقفة تأمل وتدبر واستقراء؛ ليستنبط ما وراءه من سنن مطردة وإعجاز سنني، وفي هذا المقام أذكر أمثلة ونماذج لكيفية استنباط تلك السنن والوقوف على الإعجاز السنني في القرآن الكريم:

١- ورود لفظة (سنة) وما اشتق منها:

ورد لفظ السنة في القرآن الكريم في ستة عشر موضعًا، حيث ورد اللفظ مجموعًا في موضعين في سورتي آل عمران النساء؛ وجاءت المواضع الأربعة عشر الباقية بصيغة الإفراد. كما جاءت تسعة مواضع منها مضافة إلى الله تعالى، وجاءت ستة منها مضافة إلى الناس، وبقي موضع واحد فقط بدون إضافة، وهكذا أفادت جل استعمالات كلمة (سنة) في القرآن معنى واحدًا وهو: الطريقة والقانون.

ويأتي هذا اللفظ في سياق الحديث عن نتائج متعلقة بسلوك الناس أو قبل تقرير حكم أو بعده، نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الهداية لسنن السابقين:﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(سورة النساء: ٢٦)، وقوله عز من قائل في سنة الجزاء من جنس العمل:﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾(سورة فاطر: ٤٣)، وقوله عز وجل في سنته في المكذبين على مدار التاريخ:﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(سورة الأنعام: ١١)، وقوله تقدست كلماته في المشركين المنكرين لدعوة الحق المتصدين للرسل:﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾(سورة الأنفال: ٣٨)، وقوله جل جلاله في سنته في هزيمة المشركين المستكبرين الذين يصدون عن سبيل الله ويؤذون رسل الله -عليهم السلام-في بضع سنين:﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾(سورة الإسراء: ٧٦-٧٧).

٢- ورود لفظة (جعل) وما اشتق منها في سياق الأفعال الإلهية[١٨٢]:

نحو قول الله عز اسمه في سنته في الخلق:﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(سورة الرعد: ٣).

وقوله عز سلطانه في سنة الاستخلاف:﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(سورة يونس: ١٤).

وقوله جلت عظمته في سنته في إهلاك الظالمين:﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾(سورة الأنبياء: ١٥).

وقوله تقدست كلماته في سنته في خلق الإنسان:﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ

١٨٢-انظر: طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (١)، ابو اليسر رشيد كهوس، مجلة الداعي، السنة : ٣٥، العدد :٢-٣ ، محرم – صفر ١٤٣٦ هـ = ديسمبر ٢٠١٠م – يناير ٢٠١١م.

ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾(سورة فاطر: ١١).

وقوله تعالى وتقدس في سننه في الأرزاق: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾(سورة الحجر: ١٩-٢١).

٣- ورود كلمة (حقت) في سياق الفعل الإلهي:

كقوله تبارك وتعالى في سننه في الفاسقين: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ٣٣]، وقوله جل وعلا في سننه في الكافرين: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[غافر: ٦].

٤- الألفاظ التي تدل على معان كونية:

يعرض القرآن الكريم الإعجاز السنني بألفاظ وصيغ كونية عامة، تتعلق بربوبية الله وخالقيته، وهو قضاؤه وقدره الكونيان، وهي غير الدينية الشرعية المتعلقة بإلهيته، فتلك عامة وهذه خاصة، ولا يمكن لأحد أن يخرج عن حكم الله الكوني القدري، أما حكمه الديني الشرعي فيعصيه الفجار والفساق. ومن تلك الألفاظ الحكم الكوني كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧]. وحكمه جل وعلا أن ينصر الحق ويبطل الباطل وفق ما جرت به سننه ومضى قانونه.

ومن تلك الألفاظ الإرادة: كقوله تعالى في سننه في الهلاك والترف: ﴿أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[الإسراء: ١٦]، وقوله جل وعلا في سننه في نصرة المستضعفين: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[القصص: ٥].

ومنها لفظ الكتابة: كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] أي قضى سبحانه وفق إرادته الأزلية وسننه المطردة بأن النصرة لله ولرسله وأتباعهم.. وقوله جل وعلا في سننه في التوبة والتائبين: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

٥- استفسارات استنكارية(١٨٣):

نحو قوله جل ثناؤه في سننه في الهداية والضلال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾(سورة آل عمران: ١٣٧)، وقوله تبارك وتعالى في سننه في الأجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾(سورة الإسراء: ٩٩)، وقال جل في علاه في سننه في الإهلاك: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ

١٨٣-انظر: طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (١)، مجلة الداعي، السنة : ٣٥، العدد :١-٢.

مِنَ الْقُرُون مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾[سورة القصص: ٧٨].

٦- ورود فعل الله ﷻ مع تعليله[١٨٤][١٨٥]:

يمكن لنا كذلك الوقوف على الإعجاز السنني في القرآن من خلال سياق الآيات التي ورد فيها فعل الله مع تعليلهوخاصة فيما يتعلق بنظام الحياة، وأخذ العبر والدروس من قصص الغابرين:

أ)- أن يذكر الله ﷻ فعله معللا إياه بحرف من حروف التعليل[١٨٦]:

فبحرف (الباء): نحو قوله تبارك وتعالى في سنة النعم وتغييرها:﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[سورة النحل: ١١٢]، وقوله سبحانه في سنته في المكذبين على مر الأزمان:﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾[سورة غافر: ٢١]، وقوله جل وعلا في سنته في المنافقين:﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾[سورة النساء: من الآية ٨٨]، وقوله سبحانه وتعالى في سنته في المشاقين لله ولرسوله في كل أرض وفي كل وقت:﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[سورة الأنفال: ١٣].

وبحرف (اللام):نحو قوله تبارك وتعالى في سنة التعارف بين الناس:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[سورة الحجرات: ١٣]، وقوله جل شأنه في سنة الإملاء:﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[سورة آل عمران: ١٧٨]، وقوله تقدست كلماته في سنة الفتنة:﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾[سورة طه: ١٣٢]، وقوله عز سلطانه في سنته في الاعتزاز بغير الله:﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[سورة مريم: ٨٢]، وقوله عز وجل في سنته في تداول الأيام واستبدال الأقوام :﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾[سورة آل عمران: ١٤٠]، وقوله تبارك وتعالى في سنة التبشير و الإنذار:﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا

١٨٤- قال الشيخ محمد مصطفى شلبي -رحمه الله-: وبالوقوف على حقيقته -التعليل- تتجلى مدارك الأنمة، ويظهر بهاء الشريعة، ويسهل دفع شبه الطاعنين عليها بالجمود، وعدم مسايرتها للزمن، ومنه يبتدئ طريق الإصلاح، وعلى ضوئه يسير المصلحون، وبسبب التكلف فيه وقف الجامدون.

والتعليل في اصطلاح أهل المناظرة: علل الشيء: بيّن علته وأثبته بالدليل. والتعليل تبيين علة الشيء، ويطبق عندهم أيضا على ما يستدل به بالعلة على المعلول». تعليل الأحكام، ص٥-١٢ بتصرف.

والعلة هي الوصف الظاهر المنضبط المعرف للحكم، أي يوجد الحكم عند وجودها وينعدم عند عدمها.

وهي قد تكون منصوصة أو مجمعا عليها أو مستنبطة بإحدى المسالك الأخرى أو مدركة بمجرد فهم اللغة.المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، ص٦٤.

١٨٥-انظر: طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم(١)، مجلة الداعي، السنة: ٣٥، العدد: ١-٢.

١٨٦- حروف التعليل: كي، واللام، وإذن، ومن، ومِنْ، والباء، والفاء، وإنّ، وإذْ. انظر: البحر المحيط في اصول الفقه، للزركشي، ١٦٧/٤ و١٧٧/٤. والإحكام في أصول الأحكام، للآمدي، ٣١٨/٣.

لُـدًا﴾(سـورة مريـم: ٩٦)، وقولـه تبـارك وتعالـى فِـي سـنة الإنـذار والإعـذار:﴿رُسُـلاً مُبَشِّـرِينَ وَمُنْذِرِيـنَ لِئَـلاَّ يَكُـونَ لِلنَّـاسِ عَلَـى اللهِ حُجَّةٌ بَعْـدَ الرُّسُـلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيـزًا حَكِيمًـا﴾(سـورة النسـاء: ١٦٥).

وبحـرف (إنَّ): نحـو قـول الله عـز وجـل فـي سـنته فـي الذيـن يكتمـون الحـق:﴿إِنَّ الَّذِيـنَ يَكْتُمُـونَ مَـا أَنْزَلْنَـا مِـنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالْهُـدَى مِـنْ بَعْـدِ مَـا بَيَّنَّـاهُ لِلنَّـاسِ فِـي الْكِتَـابِ أُولَئِـكَ يَلْعَنُهُـمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُـمُ اللَّاعِنُـونَ﴾(سـورة البقـرة: ١٥٩)، وقولـه سـبحانه وتعالـى فـي سـنته فـي الإهلاك:﴿أَهُـمْ خَيْـرٌ أَمْ قَـوْمُ تُبَّـعٍ وَالَّذِيـنَ مِـنْ قَبْلِهِـمْ أَهْلَكْنَاهُـمْ إِنَّهُـمْ كَانُـوا مُجْرِمِيـنَ﴾(سـورة الدخـان: ٣٧).

وبحـرف (الفـاء): نحـو قولـه جلـت حكمتـه فـي سـنة العقـاب الدنيـوي:﴿وَلَا تَرْكَنُـوا إِلَـى الَّذِيـنَ ظَلَمُـوا فَتَمَسَّـكُمُ النَّـارُ وَمَـا لَكُـمْ مِـنْ دُونِ اللهِ مِـنْ أَوْلِيَـاءَ ثُـمَّ لَا تُنْصَـرُونَ﴾(سـورة هـود: ١١٣)، وقولـه سـبحانه فـي سـنته فـي تكذيب المرسـلين:﴿كَذَّبَـتْ قَبْلَهُـمْ قَـوْمُ نُـوحٍ فَكَذَّبُـوا عَبْدَنَـا وَقَالُـوا مَجْنُـونٌ وَازْدُجِـرَ﴾(سـورة القمـر: ٩).وبحـرف (إذْ): نحـو قولـه تقـدس وتعالـى فـي سـنة صـراع الحـق والباطـل:﴿وَإِذْ يَعِدُكُـمُ اللهُ إِحْـدَى الطَّائِفَتَيْـنِ أَنَّهَـا لَكُـمْ وَتَـوَدُّونَ أَنَّ غَيْـرَ ذَاتِ الشَّـوْكَةِ تَكُـونُ لَكُـمْ وَيُرِيـدُ اللهُ أَنْ يُحِـقَّ الْحَـقَّ بِكَلِمَاتِـهِ وَيَقْطَـعَ دَابِـرَ الْكَافِرِيـنَ﴾(سـورة الأنفـال: ٧).

وبحـرف (كـي): نحـو قولـه سـبحانه وتعالـى فـي تحقيـق وعـده بحفـظ وإرجاع كليمـه موسـى عليه السلام إلـى أمه[١٨٧]:﴿فَرَدَدْنَـاهُ إِلَـى أُمِّـهِ كَـيْ تَقَـرَّ عَيْنُهَـا وَلَا تَحْـزَنَ وَلِتَعْلَـمَ أَنَّ وَعْـدَ اللهِ حَـقٌّ وَلَكِـنَّ أَكْثَرَهُـمْ لَا يَعْلَمُـونَ﴾(سـورة القصـص: ١٣).

وبحـرف (مِـنْ): نحـو قولـه تبـارك وتعالـى فـي سـنته فـي هـلاك الأمم:﴿مِمَّـا خَطِيئَاتِهِـمْ أُغْرِقُـوا فَأُدْخِلُـوا نَـارًا فَلَـمْ يَجِـدُوا لَهُـمْ مِـنْ دُونِ اللهِ أَنْصَـارًا﴾(سـورة نـوح: ٢٥).

ب)-أن يـرد فـي القـرآن فعـلان يفـرق بينهمـا بالحكـم بذكـر الصفـة ويكـون التفريـق بينهمـا بلفظـة الاسـتدراك (لكـن)[١٨٨]:

نحـو قولـه تبـارك وتعالـى فـي سـنة الاختـلاف والمختلفيـن:﴿وَلَـوْ شَـاءَ اللهُ مَـا اقْتَتَـلَ الَّذِيـنَ مِـنْ بَعْدِهِـمْ مِـنْ بَعْـدِ مَـا جَاءَتْهُـمُ الْبَيِّنَـاتُ وَلَكِـنِ اخْتَلَفُـوا فَمِنْهُـمْ مَـنْ آمَـنَ وَمِنْهُـمْ مَـنْ كَفَـرَ وَلَـوْ شَـاءَ اللهُ مَـا اقْتَتَلُـوا وَلَكِـنَّ اللهَ يَفْعَـلُ مَـا يُرِيـدُ﴾(سـورة البقـرة: مـن الآيـة ٢٥٣)، وقولـه عـز مـن قائـل فـي سـنة الهدايـة: ﴿لَيْـسَ عَلَيْـكَ هُدَاهُـمْ وَلَكِـنَّ اللهَ يَهْـدِي مَـنْ يَشَـاءُ﴾(سـورة البقـرة: مـن الآيـة ٢٧٢)، وقولـه عـز وجـل فـي سـنة الاصطفاء:﴿قَالَـتْ لَهُـمْ رُسُـلُهُمْ إِنْ نَحْـنُ إِلَّا بَشَـرٌ مِثْلُكُـمْ وَلَكِـنَّ اللهَ يَمُـنُّ عَلَـى مَـنْ يَشَـاءُ مِـنْ عِبَـادِهِ وَمَـا كَانَ لَنَـا أَنْ نَأْتِيَكُـمْ بِسُـلْطَانٍ إِلَّا بِـإِذْنِ اللهِ وَعَلَـى اللهِ فَلْيَتَـوَكَّلِ الْمُؤْمِنُـونَ﴾(سـورة إبراهيـم: ١١)، وقولـه جـل ذكـره فـي سـنته فـي هـلاك الأمم:﴿فَكُلًّا أَخَذْنَـا بِذَنْبِـهِ فَمِنْهُـمْ مَـنْ أَرْسَـلْنَا عَلَيْـهِ حَاصِبًـا وَمِنْهُـمْ مَـنْ أَخَذَتْـهُ الصَّيْحَـةُ وَمِنْهُـمْ مَـنْ خَسَـفْنَا بِـهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُـمْ مَـنْ أَغْرَقْنَـا وَمَـا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُـمْ وَلَكِـنْ كَانُـوا أَنْفُسَـهُمْ يَظْلِمُـونَ﴾(سـورة العنكبـوت: ٤٠)،

١٨٧- وهي سنة من سنن الله في نصر رسله: فكما رد الله تبارك وتعالى سيدنا موسى عليه السلام إلى أمه كي تقر عينها، رد الله حبيبه المصطفى سيدنا محمدا ﷺ إلى أم القرى مكة المكرمة كي تقر عينه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

١٨٨- وهذا يندرج في المسلك الثالث من مسالك العلة (التنبيه والإيماء): بحيث يذكر الشارع أمرين ويفرق بينهما بالحكم بذكر الصفة، ويكون التفريق بوسائل مختلفة. والذي يهمنا هنا التفريق بينهما بلفظة الاستدراك (لكن). انظر مثلا المسلك الثالث من مسالك العلة في كتاب: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي. ٣/٣٢٦.

وقوله تبارك وتعالى في سنته في الدعوات:﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾(سورة الأنعام: ٣٣).

٧- ورود فعل الله ﷻ في سياق الجملة الشرطية(١٨٩):

أ - تعليل عدم الجزاء بوجود المانع: فإذا وُجد الفعل امتنع الجزاء؛ نحو قوله تبارك وتعالى:﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(سورة النور: ١٤)، وقوله سبحانه وتعالى في سنة الأجل:﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾(سورة العنكبوت: ٥٣)، وقوله تعالى وتقدس في سنته في اليهود:﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾(سورة الحشر: ٣).

ب -تعليل ترتب الجزاء على وقوع الفعل(١٩٠): ترتب فعل الله ﷻ على الوصف بصيغة الشرط والجزاء: أي: يقع الجزاء إذا وقع الفعل: نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الهداية والضلال:﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(سورة البقرة: ٣٨)، وقوله عز اسمه:﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(سورة البقرة: ٢٥٦)، وقوله عز وجل:﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾(سورة الأنعام: ١٠٤).

وقوله تبارك وتعالى في سنة الانتساب:﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(سورة المائدة: من الآية ٥١).

وقوله جل في علاه في سننه في الإرزاق:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(سورة الأعراف: ٩٦)، وقوله تبارك وتعالى:﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾(سورة الطلاق: ٢-٣).

وقوله عز سلطانه في وعده في الإفساد اليهودي الأول؛ الذي تحقق في عهد النبي ﷺ وأصحابه:﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾(سورة الإسراء: ٥).

وقوله تبارك وتعالى في سننه التي تسوق بني إسرائيل إلى﴿وعد الآخرة﴾ -وهو الإفساد اليهودي الأخير-؛ ليتم استئصالهم وقطع دابرهم بمقتضى سنة الله في قطع دابر المفسدين المستكبرين في الأرض : ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ(١٩١) لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾(سورة الإسراء: ٦-٧).

وقوله جل وعلا في سنة الجزاء من جنس العمل:﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا

١٨٩- ويدخل في المسلك الثالث من مسائل العلة؛ أي الإيماء والتنبيه، انظر مثلا: الجامع لأحكام وأصول الفقه، ص ٣٣٢-٣٣٣.

١٩٠-انظر: طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم(١)، مجلة الداعي، السنة: ٣٥، العدد: ١-٢.

١٩١- ﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾:هذه جملة شرطية معطوفة على الأولى ﴿فإذا جاء وعد اولاهما...﴾، وجواب جملة الشرط هذه -الثانية- محذوف تقديره: بعثنا عليكم عبادًا.

نَصِيرًا﴾(سورة النساء: ١٢٣).

وقوله جلت عظمته وتقدست كلماته في سنة الاستبدال:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(سورة المائدة: ٥٤)، وقوله عز من قائل:﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(سورة التوبة: ٣٩).

وقوله جل جلاله في سنته في الذنوب والسيئات:﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا(١٩٢) فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾(سورة آل عمران: ١٥٢).

وقوله تعالى وتقدس في سنته في المكذبين:﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا(١٩٣) جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾(سورة الأنعام: ٣١).

وقوله جل وعلا في سنته في النصر بعد الاستيئاس:﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ(١٩٤) نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾(سورة يوسف: ١١٠).

وقول الله عز اسمه في سنة الإمهال والإهلاك:﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ(١٩٥) لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ(١٩٦) مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾(سورة مريم: ٧٥).

٨- ورود فعل الله ﷻ مرتبا على صفة(١٩٧):

فيفهم السامع أن هذا الفعل يدور مع تلك الصفة أينما وجدت؛ نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الإملاء:﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(سورة الحج: ٤٨).وقوله عز من قائل في سنة الإهلاك: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾(سورة القصص: من الآية ٥٨).

٩- ورود فعل الله ﷻ أو امتناعه منوطا بغاية:

نحو قوله تبارك وتعالى في سنة العقاب الدنيوي:﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(سورة الأعراف: ٤٠)، وقوله تقدس وتعالى في سنة التمييز:﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا

١٩٢- «إذا»: ظرفية متعلقة بجوابها المقدر: انقسمتم. والجملة الشرطية مستانفة.

١٩٣- «إذا»: ظرفية شرطية متعلقة بـ»قالوا».

١٩٤-وجملة «جاءهم» جواب الشرط.

١٩٥- وجملة ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ جواب الشرط الأولى.

١٩٦-وجملة ﴿فسيعلمون﴾ جواب الشرط الثانية.

١٩٧- وغالبا يكون صدر هذه الجمل بـ(كم) الخبرية التي تدل على التكرار، و(كاين) بمعنى كم الخبرية.

فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾(سورة آل عمران: ١٧٩). وقوله تبارك وتعالى في سنة التغيير:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(سورة الرعد: من الآية ١١).

١٠- ترتب الجزاء من الله ﷻ أو امتناعه منوطا بحال[١٩٨][١٩٩]:

نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الوحي إلى رسله:﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(سورة الشورى: ٥١). وقوله عز من قائل في سنته في الكافرين:﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾(سورة النساء: ١٣٧)، وقوله عز سلطانه في سنته في هلاك الأمم:﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾(سورة الحجر: ٤).

١١- الأمر بالشيء مع بيان ما فيه من مصالح:

في مواضع يأمر الله ﷻ بالشيء مبينا ما فيه من مصالح، نحو قوله تبارك وتعالى في سنة الإعداد:﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾(سورة الأنفال: ٦٠)، وقوله تبارك وتعالى في سنة التحرز من الشيطان:﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(سورة فاطر: ٦)؛ فهي عداوة عامة قديمة لا تكاد تزول بمقتضى سنة الله المطردة.

١٢- النهي عن شيء مع بيان عواقبه السيئة:

نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في الذين يزيغون عن طريق الحق:﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(سورة الأنعام: ١٥٣).

١٣- ورود لفظة (كذلك) بمعنى: (مثل ذلك) في سياق فعل الله ﷻ أو قصة قرآنية:

نحو قوله تبارك وتعالى في سنته في القوم المجرمين:﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(سورة يونس: ١٣)، وقوله عز وجل في سنته في إخماد الباطل وإزهاقه وقطع دابر أهله:﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾(سورة الأحقاف: ٢٥)، والآية في سياق الحديث عن عاد قوم هود عليه السلام وما حل بهم من الهلاك والاستئصال لما كذبوا الرسل وأنكروا رسالة نبي الله هود عليه السلام.

١٤- وعود مطلقة على صفات مخصوصة:

١٩٨- وغالبا ما يكون صدر الجمل في هذا الباب بالنفي أو بالكون المنفي (لم يكن، ما كنا، ما كان)، أي مجيء مشتقات فعل الكون مع (ما) أو (لم)، وقد تأتي بعدها لام الجحود وهي أبلغ، وقد لا تأتي.

١٩٩-انظر هذه النقاط ١٠-١١-١٢-١٣-١٤ في مقالنا الموسوم بـ"طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (٢)" المنشور في مجلة الداعي: العدد الثالث للسنة ٣٥، ربيع الأول ١٤٣٢هـ= فبراير ٢٠١١م

نحو قول الله تعالى في سنة الاستخلاف والتمكين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور: ٥٥)، وقوله سبحانه وتعالى في سنته في نصر المرسلين: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٧١-١٧٣).

هذه بعض الطرائق التفصيلية في كيفية استخراج السنن، ومما لا ريب فيه أن طريقة استخراج السنن من القرآن الكريم كثيرة، ويمكن استعمال كل مسالك العلة التي ذكرها علماء الأصول في باب التعليل في استنباطها واستخراجها.

ثانيا: منهج القرآن في عرض الإعجاز السنني على وجه الإجمال

ما ذكرناه سابقا من نماذج كان على وجه التفصيل، أما على وجه الإجمال فيمكننا الوقوف على الإعجاز السنني من خلال القصص القرآني[٢٠٠] الذي يشغل مساحة واسعة من القرآن الكريم -تقارب ثلث القرآن-، ومن الأمثال القرآنية كذلك، والآيات التي ورد فيها ربط الأسباب بالمسببات والنتائج بالمقدمات، وفي سياق الأحكام التكليفية:

١ - القصص القرآني:

قد تقرر فيما سلف، أن القرآن الكريم قد عُنِيَ ببيان سنن الله في الأمم عناية فائقة، وأنه بالاستقراء، تبين لنا أن السنن بمجموعها تحتل مساحة واسعة في كتاب الله تعالى، كيف لا وقد بلغت آيات القصص -وهي تمثل جانبا من الجوانب التي يعرض القرآن من خلالها السنن- ما يقارب ألفا وخمسمائة آية، وهو الكريم على وجه التقريب، ويوازي ثلاثة أضعاف آيات الأحكام، والتي بلغت خمسمائة آية تقريبا.

يقول الشيخ رشيد رضا -رحمه الله-: إن ثلاثة أرباع القرآن تقريبا، قصص وتوجيه للأنظار إلى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم، ولا شيء يهدي الإنسان كالمثلات والوقائع، فإذا امتثلنا الأمر والإرشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزهم وذلهم، وغير ذلك مما يعرض للأمم، كان لهذا النظر أثر في نفوسنا، يحملنا على حُسْن الأسوة والاقتداء بأخبار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكين في الأرض، واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار [٢٠١].

يقول الدكتور عبد الحليم عويس -رحمه الله- في إطار حديثه عن أهمية القصص القرآني إنه «يشكل بالنسبة لنا تجربة تاريخية غنية، ومختبرا لنفاذ السنن واطرادها، ومصدرا مهما لعلم الاجتماع البشري، والقوانين التي تحكمه، ونتعامل مع نتائج وخلاصات يقينية، أشبه بنتائج التجارب في العلوم المادية، وأشبه بالمعادلات الصارمة الدقة في العلوم الرياضية

٢٠٠-والقصص في القرآن الكريم على أنواع ثلاثة: ١- قصص الأنبياء السابقين عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام. ٢- قصص الأمم والأحداث الغابرة. ٣- قصص السيرة النبوية المحمدية .

٢٠١- تفسير المنار، ١/٦٧.

والفيزيائية (...)وأي مشروع نهضوي لا يأخذ هذه الأبعاد المتلازمة بعين الاعتبار، محكوم عليه بالفشل»[٢٠٢].

ويقول شيخ الدعاة محمد الغزالي -رحمه الله- مبينا سوء تعامل الناس مع القصص القرآني وتنكبهم مقاصده في الهداية لسنن السابقين: المشكلة في النظر إلى القصص القرآني..لقد انتقل من دراسة تاريخية لقيام الحضارات وانهيارها إلى دراسة روائية ليس فيها حس بسنن الله الكونية إطلاقا.. فوجدت أساطير، ووجدت الإسرائيليات مجالا واسعا عند القصاصين [٢٠٣].

وعليه،فإن إلحاح القرآن الكريم على الأمر بالسير في الأرض، لا لمجرد التسلي والوقوف على مصارع الأقوام الغابرة، والنظر في عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ولكن للاعتبار، وتجنب أسباب الهلاك التي وقعوا فيها، واكتشاف سنن الله التي لا تتعطل ولا تنخرم في التاريخ حتى لا تسقط الأمة فيما سقطوا فيه وتحصدها عجلة السنن.

فالتاريخ يعيد نفسه، وتظهر فيه سنن الله جلية لاحبة. ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾(سورة التوبة: ٧٠). فأحداث التاريخ تتكرر، وسنة الله ثابتة مطردة على مدار التاريخ[٢٠٤].

هذا وقد سعى القصص القرآني لكشف تفاعل السنن الإلهية في واقع الناس لاستخلاص العبر والعظات بأن لاشيء يخرج عن عهوده الربانية والتي هي كلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر [٢٠٥].

يقول الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي: لماذا القصص القرآني عبرة؟ العبرة من العبور، وكأن الواحد منا عندما يقف أمام قصص السابقين في القرآن يعبر إلى الماضين، كأنه يتخلص من قيد الزمان والمكان، ويتحرر من أسْر الواقع، ويستعلي على النظر القاصر القصير، وينطلق إلى عوالم فسيحة من تاريخ الأقدمين، وقصص السابقين فيعايشهم ويراقبهم ويتعظ بهم.

إنها نماذج بشرية مكررة تقدمها لنا قصص السابقين في القرآن: نماذج المؤمنين ونماذج الكافرين، نماذج الضعفاء الأذلاء، ونماذج الرجال الصادقين الأقوياء. وإنها قيم دائمة توحي لنا بها قصص السابقين: قيم الحق وقيم الباطل، قيم الفضيلة وقيم الرذيلة.

إنها المعركة المستمرة بين الحق والباطل، وإن التاريخ يعيد الكثير من ميادين هذه المعركة وأساليبها وصورها ومجالاتها. ولا يختلف فيها إلا الأشخاص.

كم يقدم لنا قصص القرآن من دروس ودلالات وعبر، ومن قيم وحقائق وسنن، ومن زاد وعدة وسلاح، ومن طمأنينة وثقة وسعادة وثبات.

إن قصص القرآن كنزٌ لا ينفد، ومَعين لا ينضب في دروسه ودلالاته وعِبَره،

٢٠٢- التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، ص ٢١.

٢٠٣- كيف نتعامل مع القرآن، ص٦٧.

٢٠٤-انظر : «طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (٢)»، مجلة الداعي: السنة ٣٥، العدد٣.

٢٠٥- منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية. محمد جابري. ص٩٨.

في الإيمان والعقيدة، وفي العمل والدعوة، وفي الجهاد والمواجهة، وفي المنطق والأسلوب، وفي الصبر والثبات، وفي الموازين والحقائق [٢٠٦]. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة يوسف: ١١١].

هذا علاوة على أن أفضل الفوائد والفرائد وأهم الدروس والعبر في القصص القرآني هو تنبيه الناس على سنن الله -تعالى- في نشوء المجتمعات واندثارها، وتأثير أعمال الخير والشر فيها، ومطالعة أمر الله في أحوال الكافرين وسنته المطردة التي -لا تتعطل- فيهم[٢٠٧].

وسيبقى القصص القرآني الشعلة التي تضيء للبشرية لتصل حاضرها بماضيها، وستبقى النعمة الربانية تبهج النفوس النفس وتملأ القلوب إجلالا وتعظيما لله تعالى، وسيبقى النص القرآني معجزا يبهر العقول والألباب ويجذب الأرواح والقلوب..

٢ - الأمثال القرآنية[٢٠٨]:

لم تذكر الأمثال في القرآن عبثا، وإنما ذكرت لاستقراء ما وراءها من عبر غوالٍ، ودروس بالغة. وسنن إلهية ثابتة، ينكشف بها اللبس، وتتبين العثرات، حتى يدرك الناس ما ينفعهم، فيسعوا لتحصيله، ويدركوا ما يضرهم فيجتنبوه. قال الحق جل وعلا في بيان الحكمة من ضرب الأمثال: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: من الآية ٢٥]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٢٧]، وقال جل جلاله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الحشر: من الآية ٢١].

ولذلك فإن للأمثال القرآنية شأنا عظيما في تزكية النفوس والرقي بها نحو المعالي، فمن الأمثال -مثلا- التي تتضح فيها سنن الله جلية واضحة قوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [سورة النحل: ١١٢-١١٣]. وفي المثل سنة مطردة وهي سنة الله في النعم وتغييرها[٢٠٩].

٣- الآيات التي ورد فيها ربط النتائج بالمقدمات[٢١٠]:

نحو قوله تبارك وتعالى في سننه في تيسير المخرج للمؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة الأنفال:٢٩]، وقوله عز وجل في سنة النصر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [سورة محمد: ٧].

٢٠٦- مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص٣٠.

٢٠٧-انظر: «طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (٢)»، مجلة الداعي: السنة ٣٥، العدد٣.

٢٠٨-الأمثال القرآنية المقصودة هنا هي تلك التي جاء بعدها الحاح على الاعتبار بها واستنباط الدروس منها، أو تلك التي جاءت في سياق القصص القرآني.

٢٠٩-انظر: «طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (٢)»، مجلة الداعي: السنة ٣٥، العدد٣.

٢١٠-المرجع نفسه.

إن سنة الله ترتيب الأسباب على المسببات والنتائج على المقدمات، وترتيب المرحلة على المرحلة، والمعلولات على العلة، وتغيير النعم على تغيير ما بأنفس الناس، والنصر في ساحة الوغى على إعداد القوة المستطاعة المعنوية والمادية.

هذا، وما خفي أعظم، وأبعاد سنن الله المطردة لا متناهية. قال الدكتور محمد رشاد خليل: وسنن الله كثيرة لا تقع تحت حصر، منها ما نعرفه ومنها ما نجهله وقد نعرفه بعد البحث، ومنها ما لا يحيط بعلمه إلا الله ذلك أن السنن ليس ما نعرفه فقط وإنما ما لا نعرفه أيضا، وما لا نعرفه أكثر كثيرا مما نعرفه»[٢١١].

٤- عرض السنن في سياق الأحكام التكليفية:

وأعني الأحكام التكليفية: الإيجاب والتحريم والكراهة والإباحة، ونحوها.

والأحكام التكليفية إنما شرعت لإسعاد المكلفين الممتثلين لها في معاشهم ومعادهم، وتنظيم شؤونهم ومعاملاتهم، ومن خالفها عوقب بأنواع العقوبات الشرعية والكونية. ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[الكهف: ٤٩].

ومن هنا فإن القرآن الكريم من خلال هذه الأحكام التكليفية يعرض للنتائج الحسنة المترتبة على المقدمات الحسنة، المتمثلة في الالتزام بتلك الأحكام والامتثال لها، كما يعرض النتائج السيئة لمن خالفها أو تنكبها، بحيث لا يكاد يذكر شيئا من هذه الأحكام إلا مصحوبا بالأثر (الجزاء) المترتب عليه، فعلا أو تركا.

ومن الأمثلة على ذلك قوله تبارك وتعالى في سنته في الربا والمرابين: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦)﴾[سورة البقرة]. وقوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩)﴾ [سورة البقرة].

ومما تجدر إليه الإشارة هنا أن القرآن الكريم وإن عني بعرض السنن في سياق تقرير الأحكام التكليفية، فإن ذلك قد يخفى على بعض الناس حيث لا يذكرها بصورة صريحة وإنما تنبيها وإيماء، بخلاف عرضه لها في سياق القصص القرآني والأمثال والتشبيهات.. لذا تحتاج المسألة هنا إلى تدبر وتتبع واستقراء، فأنت مثلا عندما تقرأ قوله تعالى:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].قد لا ينقدح في ذهنك أنك أمام رافد من روافد الهداية وسبب من أسبابها التي أمضى الله سنته في خلقه أنها لا تحصل إلا من هذا الطريق وأمثاله.

[٢١١] دفاع عن التاريخ الإسلامي، ص ١٠٥-١٠٦.

المبحث الرابع
نماذج من الإعجاز السنني في القرآن الكريم

إنا من خلال إدراكنا وفهمنا ووقوفنا على الإعجاز السنني في القرآن الكريم نصل إلى السنن الإلهية التي تحكم المجتمعات الإنسانية وتضبط حركة التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، كما ندرك من خلاله أن الشعوب والأمم والدول والحضارات لا يخرجون في سائر تصرفاتهم عن سلطان هذه السنن: فلا ترقى أمة ولا تتقدم ولا تنهار وتندثر إلا وفق هذه السنن وعلى هدى منها.

كما أننا لا نعثر على هذه السنن إلا في النص القرآني الذي تناولها بأسلوب معجز لم يسبق إليه، لذلك حث القرآن الكريم المؤمنين على تدبر آياته والبحث عما فيها من حقائق كونية وسنن ثابتة وصارمة ومطردة، لتسخيرها لتحقيق الصدارة والريادة.

ويتجلى الإعجاز السنني في القرآن الكريم من منطلق أن الكون والحياة بما فيهما من مظاهر معنوية ومادية وإنسانية دقيقة وهائلة لا يمكن أن يكون من محض صدفة وعبث، وإنما هو من تدبير العليم الحكيم المنزه عن العبث، وما يصدر عنه سبحانه وتعالى كله تصرفات حكيمة متناسقة خاضعة لقوانين محكمة، وسنن ثابتة ومطردة لا تحيد ولا تميل.

وإذا كان الإنسان قد استطاع أن يكتشف كثيرا من القوانين المادية أو الطبيعية أو الكونية التي تحكم الكون وتتحكم في عناصره، وأخضع كثيرا منها إلى المنهج العلمي التجريبي، فإنه لا يمكن أن يكون على معرفة صحيحة بالقوانين والنواميس والسنن التي تحكم حياة الناس والعمران والحضارات والأمم إلا عبر الوحي الذي يمثل القرآن الكريم أرفع صوره وأحدث بياناته.

وبمعزل عن الوحي لا يمكن للبشرية أنتقف على هذا الإعجاز السننيوالسنن الإلهية التي تحكم الإنسانوالتاريخ والمجتمعات البشرية، فقد كان الإنسان قديما ينظر إلى الوقائع التاريخية وحركة المجتمعات البشرية ونشوء الحضارات وانهيارها بنظرة مادية أو عفوية خرافية، فيفسرها تارة على أساس الصدفة أو العبث، وتارة على أساس القضاء والقدر بدون إدراك مغزاها الحقيقي، وبدون التمييز بين أمر الله القدري الكوني، وأمره الديني الشرعي. كما أن التفسير اللاهوتي للتاريخ والمجتمع يتناول الحادثة نفسها ويربطها بإرادة الله سبحانه وتعالى قاطعا صلتها بقانون الأسباب، ويلغي دور الإنسان ويجعله عبدا ذليلا للحتميات. كما أن النظرة الغربية المادية تمثل الأحداث التاريخية نهرا جاريا بالحضارات يصب في بحر العدم، وتمثل الإنسان بصفته المحرك الأساس لعوامل الصراع في هذا الكون بغض الطرف عن أي مؤثر كان..[٢١٢].

إن لله تبارك وتعالى جعل في هذا الكون والحياة سننًا ثابتة ونواميس مطردة في ازدهار الأمم وانهيارها، وتغيير مجتمعاتها وأحوالها: سواء أكان هذا التغيير من الضعف إلى القوة، أم كان من القوة إلى الضعف، فبحسب

٢١٢-انظر: السنن الإلهية في السيرة النبوية، ص٣٥. بين التفسير الإسلامي والتحليل المادي اللانيكي للتاريخ. رشيد كهوس. موقع التاريخ (www.altareekh.com).

الطريق الذي تسلكه كل أُمَة تكون خاتمتها، أمة قائمة بالحجة، وأخرى حصيدا حصدته عجلة التاريخ ورمت به في سلة المهملات. ونحن حينما نقرأ في التاريخ ونُقلّب في صفحاته نُشاهد الإعجاز القرآني السنني في التغيير والتبديل والازدهار والانهيار؛ فالتاريخ يُعيد نفسه بصورة عجيبة، حتى لَكَأَنَك وأنت تقرأ أحداثا حدثت منذ قرون خلت تشعر وكأنها الأحداث نفسها التي تتمُ في هذا العصر، مع اختلاف في أسمائها وتفاصيلها... إعجاز القرآن الكريم الخالد، وأنه صالح للاستمداد به في كل زمان ومكان..[٢١٣].

وانطلاقا مما سبق نقف هنا على نماذج من الإعجاز السنني ومن السنن الإلهية الثابتة والمطردة التي تحكم الإنسان والمجتمع عبر سائر العصور وإلى يوم القيامة، فمن أخذ بها دانت له وظفر بمبتغاه، ومن تنكبها وحاد عن طريقها حقت عليه كلمات ربه..

١- سنة التغيير:

أ- تمهيد:

غلب على البيئة التي نشأ فيها سيدنا رسول الله ﷺ طابع القبلية والعصبية، لا تعرف شيئاً عن أساليب تغيير الواقع الاجتماعي ووسائله، تائهة في كهوف الفتن والفرقة والانقسام، بل وحتى الأمم المتمدنة المجاورة للعرب كفارس والروم، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن أساليب تغيير المجتمعات وسبله، معتقدين أن التغيير في العادة يأتي من الأعلى إلى الأسفل ومن القيادات إلى الشعوب، وأنه لا سلطان للمجتمعات ولا طاقة لها في تغيير واقعها السيء إلى أحسن، وتخلفها إلى تقدمها، وسقوطها إلى نهوضها.

فجاءت المعجزة الخالدة كتاب رب العالمين بأمور جديدة على الفكر البشري في هذا المجال وغيره، وبأساليب معجزة، إذ بيّن الله سبحانه وتعالى أن تغيير الواقع يأتي من داخل المجتمعات والأقوام بتغيير ما بأنفسهم: فالله تعالى لا يغير واقع مجتمع أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيّروا ما بأنفسهم، ويصلحوا أحوالهم وعلاقاتهم ببعضهم، فيغيّر الله تعالى -آنذاك- ما بهم، فيبدلهم بعد ذلّ وضعف قوة، وبعد شدة رخاء، وبعد فقر غنى وسعة.

والعكس كذلك لا يزيل الله تعالى نعمة الأمن والأمان والسلام على أمة حتى تكفر بأنعم الله وتسلك طريق الضلال والخسران، فحينئذ يبدل أمنهم خوفا وأمانهم نكدا، وسلامهم فرقة وفتنة وحربا...

وتعتبر سنن الله في التغيير دليلا من دلائل إعجاز القرآن الكريم الذي يطمئن قلوب المؤمنين ويزيدهم إيمانا وثباتا على الحق، ويؤكد لهم أن الله تعالى لا يغير نعمه عليهم ما داموا على الطريق المستقيم والصراط السوي، وما داموا يستندون إلى ركن وثيق ويأوون إلى رحمة ربهم وطاعته.. وفق ناموسه القدري الديني الشرعي الذي جعله قانونا للحياة لا تحويل له ولا تبديل..

ب- التغيير في الاصطلاح الشرعي:

التغيير في الاصطلاح هو «انتقال من حالة لا يرضى عنها إلى أخرى خير منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة

٢١٣-انظر: مقالة «من أعالي التاريخ». لرشيد كهوس، صحيفة: (العدد: ٣٦٦٨ الأربعاء ٢٥ - ١٢ - ٢٠١٣م).

وطاقة الإنسان (٢١٤).

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى سنة التغيير في قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: من الآية ١١]، وقوله جل وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما جاء مفهوم التغيير في الحديث القدسي الذي رواه الإمام علي ﷺ عن رسول الله ﷺ: يقول الله تعالى: وعزّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من أهل قرية ولا أهل بيت ولا رجل ببادية كانوا على ما كرهته من معصيتي، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي، إلا تحولت لهم عمّا يكرهون من عذابي إلى ما يُحبُّون من رحمتي، وما من أهل بيت ولا قرية ولا رجل ببادية كانوا على ما أحببت من طاعتي، ثم تحولوا إلى ما كُرهت من معصيتي إلا تحوّلت لهم عمّا يحبون من رحمتي إلى ما يكرهون من غضبي (٢١٥).

ت- تطبيقات سنة التغيير على الفرد والمجتمع والأمة:

إن التغيير من النفس يبدأ وإليها يعود ولقد بنى الإسلام كل مناهجه التغييرية وبرامجه على تغيير ما بالنفس فمن خلال الذات الإنسانية تنطلق عمليات التغيير، وعلى أساس منها يقوم بناؤه، وعلى محور النفس تدور عجلته ، بل جعل التغيير الإلهي نتيجة وثمرة لتغيير ما بالنفس الإنسانية(٢١٦).

وتغيير ما بالنفس يبرز أول ما يبرز بعملية التزكية التي من شأنها أن تقوم بتحصين الإنسان من داخلة ضد سائر استعدادات الشر والانحراف فيه, وسائر المؤثرات الخارجية عليه, وتحجيم نوازعه الداخلية وتوجيه طاقاته باتجاه البناء والعمران في إطار من الضوابط القلبية والتزكية السلوكية والخلقية ليصبح الإنسان عمرانيا بناءً نافعاً لنفسه, مفيداً لبني جنسه مدركاً لإنسانية الإنسان ودوره العمراني غير مستلب من أحد متوازناً بحقيقته الإنسانية(٢١٧).

ولذلك فإن الأمة المسلمة في أشد الحاجة إلى سلوك سبيل سنن التغيير لبناء مجتمع أفضل تزدهر فيه قوى الخير، وتنتصر فيه إرادة الحق، وتكون الأمة به قائدة ومتقدمة.

إنه التغيير الذي يحدث ثورة داخل كيان الإنسان لصالح نفسه ولصالح الحياة من حوله, وتتم هذه الثورة أولاً داخل النفس ثم تتجه بعد ذلك إلى إحداث التغيير في المجتمع وكما يتم التغيير في إطار المجتمع بثورة تكتسح المخلفات العفنة والرواسب الفاسدة, فكذلك التغيير داخل إطار النفس الإنسانية, إنه ثورة تكتسح من النفس كل عوامل الفساد وأسباب التردي والهبوط ودواعي الانحراف والضلال(٢١٨).

٢١٤- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص ٢٧.

٢١٥- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي ٦١٦/٤.

٢١٦- الأزمة الفكرية ومناهج التغيير ، طه العلواني ، ص ١١.

٢١٧- المرجع نفسه.

٢١٨- نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، سيد توفيق محمد، ٣٦٤/٢.

٢- سنة التدرج:

إن التدرج هو الميزة البارزة في مسار الرسالة القرآنية الخالدة، فالقرآن الكريم المنزل من عند الله رب العالمين نزل منجما قال الحق جل ثناؤه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾[سورة الإسراء: ١٠٦].

وقد نبه الله تعالى على سنة التدرج مراراً في القرآن الكريم حين الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وكان بإمكانه أن يخلقها في لحظة، وكذلك خلق الإنسان أطواراً ومراحل وكان بإمكانه أن يقول له كن فيكون...قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(المؤمنون:١٢-١٤). فكان التدرج سنة إلهية مطردة في خلق الله للعالم وللإنسان الأول ولكل إنسان. كذلك شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون التدرج والتطور سنة مطردة في مسيرة الشرائع السماوية. فمع وحدة الدين عبر حقب وأمم النبوات والرسالات كان تدرج الشرائع مع واقع هذه الأمم ومع نمو المستوى العقلي لأمم هذه الرسالات[٢١٩].

كذلك لو نظرنا إلى التشريع الإسلامي وفي العبادات مثلا لوجدنا هذه السنة ظاهرة للعيان، فالصلاة تدرج الله في فرضيتها، كانت في أول الدعوة على هيئة دعاء صباحاً ومساءً، ثم تدرجت حتى انتهى بها المطاف إلى ما هي عليه الآن من عدد معين وحركات مخصوصة وكلمات مخصوصة وأوقات مخصوصة.

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالمحرمات، في تحريم الخمر والربا وغير ذلك..

وعليه، فإن التدرج سنة من السنن الإلهية في عالمي الخلق والأمر, وينبغي على الأمة أن تراعيها في كل خطواتها عامة، وفي عملية تغيير واقعها خاصة..

ويقصد بمراعاة سنة التدرج هنا أن تتدرج الأمة في عملها وسعيها إلى تغيير واقعها من السهل إلى الصعب, ومن الهدف القريب إلى الهدف البعيد، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية. ومنطلق هذه السنة, أن الطريق طويل, لا سيما في هذا العصر الذي تنمرت فيه الجاهلية وضرب الشدة والفساد جذوره في أعماق الأمة وعليه فلو قطعت الطريق في نفس واحد مع ثقل الحمل وضخامة التبعة لكان الانقطاع, وبالتالي القعود أو الفتور والتواني الأمر الذي يمكن أن يؤدي إلى ردة فعل أشد وأعنف»[٢٢٠].

وهذه السنة الربانية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس, وعندما يراد تطبيق الإسلام في الحياة, واستئناف حياة إسلامية متكاملة يكون التمكين ثمرتها, فإذا أردنا أن نقيم مجتمعاً إسلامياً حقيقياً فلا نتوهم أن ذلك يمكن أن يتحقق بقرار يصدر من رئيس أو أمير أو مجلس قيادي أو برلماني إنما يتحقق بطريق التدرج أي الإعداد, والتهيئة الفكرية, والنفسية

٢١٩-نظر: سنة الله في التدرج. رشيد ضهوس. مجلة اقلام الثقافية الالكترونية. (الخميس ٢٥ يونيو ٢٠٠٩).

٢٢٠- منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير, نوح الله محمد, ص٦٨-٦٩.

والأخلاقية والاجتماعية, وهو المنهاج نفسه الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى الحياة الإسلامية فقد ظل ثلاثة عشر عاما في مكة, كانت مهمته الأساسية فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع أن يحمل عبء الدعوة, وتكاليف الجهاد كما بينها, ونشرها في الآفاق, ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع بقدر ما كانت مرحلة تربية وتكوين(٢٢١).

وكل من خالف سنة التدرج كانت نتائج ذلك سيئة وعواقبه وخيمة، وما نراه في مجتمعاتنا اليوم خير دليل على هذا الإعجاز القرآني في التدرج في كل شيء في تغيير المجتمع وبنائه، في تطبيق الشريعة، في تنزيل الأحكام، في إصلاح النفوس، في سياسة الأمة...

٣- سنة الأسباب ومسبباتها:

السبب هو: كل شيء يتوصل به إلى غيره وكل شيء يتوسل به إلى شيء غيره وقد تسبب إليه، والجمع أسباب وكل شيء يتوصل به إلى الشيء فهو سبب وجعلت فلانا لي سببا إلى فلان في حاجتي، والسبب هو الحبل الذي يتوصل به إلى الماء ثم استعير لكل ما يتوصل به إلى شيء (٢٢٢).

والسبب الحبل والطريق لأنك تصل به إلى ما تريد(٢٢٣)، وهو عند الزمخشري ما يتوصل به إلى المقصود من علم أو قدرة أو آلة (٢٢٤).

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تدعو إلى مراعاة سنن الأسباب والمسببات، ألم يقل سبحانه وتعالى لأم عيسى مريم البتول عليهما السلام: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [سورة مريم: ٢٥]، وهو القادر أن يقول للشيء، كُنْ فيكونَ، ومع ذلك أمرها باتخاذ الأسباب.

ومن هذه الآيات الكريمة كذلك التي تتحدث عن الأسباب وضرورة الأخذ بها والتعامل معها لتكون عبرة لأولي الأبصار قوله جل وعلا عن ذي القرنين الذي سخر الله له الأسباب: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾[الكهف: ٨٤].

وقوله تعالى في أسباب الرزق: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢٢: البقرة].

وسنة الله تعالى في الأسباب والمسببات تشغل مساحة واسعة وكبيرة بالنسبة للسنن الأخرى، بل إن السنن الأخرى تقوم كلها على سنته تعالى في الأسباب بصورة مباشرة أو غير مباشرة حتى لتبدو للمتأمل فيها كأنها من مفردات سنة الله في الأسباب وليست سننا مستقلة، وكل السنن تبقى مع ذلك قائمة على سنة الله تعالى في الأسباب ومعتمدة عليها (٢٢٥).

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم، إلا بسبب كسلها وخمولها، واكتفائها بالأماني المعسولة والأحلام، وعدم الأخذ بأسباب التغيير والبناء، فكان حالها ما نراه اليوم من الخطوب التي تلهب ظهرها بكرة وعشيًا.

٢٢١-الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، (طبعة مؤسسة وهبة)، ص١٦٨.

٢٢٢-لسان العرب، ابن منظور، مادة: سبب. ١/٤٥٥.

٢٢٣- انظر: الصحاح في اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري. ١/٢٩٩. كتاب العين، للفراهيدي. ٣/٥٣.

٢٢٤-تفسير الكشاف، محمد بن عمر الزمخشري. ٤/٤٦.

٢٢٥- السنن الإلهية، عبد الكريم زيدان، ص٣٣.

والحاصل أن المسلم يأخذ بسنن الأسباب ولا يعتقد بأن الأسباب هي المنشئة للمسببات، بل يرد الأمر كله إلى خالق الأسباب، ويتعلق به -عز وجل- وحده بعد الإعداد وتوفير الأسباب، وأداء واجبه في السعي والكدح والعمل طاعة لأمر الله تعالى[٢٢٦].

والإيمان بالله تعالى والاعتماد عليه, لا ينافي أبداً الاستفادة من سنن الله التي جعلها في الكون, ولا يناقض اتخاذ الأسباب.

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى إذا أراد وقوع شيء في هذا الوجود هيأ له أسبابه التي يقع بها, لأنه سبحانه وتعالى جعل نظام هذا الكون مبنياً على سنن لا تنخرم وقوانين لا تنخرق إلا بمشيئته سبحانه وتعالى, كما هو الشأن في المعجزات وخوارق العادات, وهو استثناء من القاعدة التي قام عليها الكون من اعتبار الأسباب حقيقة في الوصول إلى مسبباتها وقد قيل: إذا أراد الله أمراً يسر أسبابه[٢٢٧].

فترك الأسباب إذن جهل بالدين؛ لأن سنة الأخذ بالأسباب لها علاقة وطيدة بسنن أخرى كسنن الرزق والهدى والتغيير وإحقاق الحق وإبطال الباطل. فالتقصير في تحصيل سنن الله التي أمرنا بالسير على هديها تترتب عليه نتائج وخيمة, ومن ثم لا يتأتى على هذا التقصير في تحصيلها مدد من الله, أو خرق لناموسه الكوني الذي قام نظام الحياة فيه علىارتباط النتائج بمقدماتها, وفضل الله لا يتأتى بمعصيته, ولذلك فانتظار خرق الناموس الكوني دون السعي الحثيث واتخاذ الأسباب المطلوبة شرعاً يعد وهماً مآله الخيبة والخسارة[٢٢٨].

يقول الإمام المقاصدي أبو إسحاق الشاطبي: وأما إذا لم تُفعل الأسباب على ما ينبغي, ولا استكملت شرائطها, ولم تنتف موانعها, فلا تقع مسبباتها, شاء المكلف أو أبى؛ لأن المسببات ليس وقوعها أو عدم وقوعها لاختياره, وأيضاً فإن الشارع لم يجعلها أسباباً مقتضية لمسبباتها إلا مع وجود شرائطها وانتفاء موانعها, فإذا لم تتوفر لم يستكمل السبب أن يكون سبباً شرعياً, سواء علينا أقلنا إن الشروط وانتفاء الموانع أجزاء أسباب أم لا, فالثمرة واحدة [٢٢٩].

فالله سبحانه وتعالى ربط الأسباب بمسبباتها شرعاً وقدراً , وجعل الأسباب محل حكمته في أمره الديني والشرعي وأمره الكوني ومحل ملكه وتصرفه, فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات, وقدح في العقول والفطرة, ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء, فقد جعل الله سبحانه مصالح العباد في معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهي والحل والحرمة, كل ذلك مرتبطاً بالأسباب قائما بها, بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه , بل الموجودات كلها أسباب ومسببات , والشرع كله أسباب ومسببات , والقدر جار عليها متصرف فيها.

٢٢٦- نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سنة الله في جهاد رسول الله ﷺ, رشيد كهوس, ص ١٨٦.

٢٢٧- السنن الإلهية, مجدي عاشور , ص١٤٩.

٢٢٨- السنن الإلهية في السيرة النبوية,كهوس, ص٤٠١.

٢٢٩-الموافقات في أصول الشريعة لأبي اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي, تحقيق: عبدالله دراز , ٢١٨/١.

فالأسباب محل الشرع والقدر، والقرآن مملوءمن إثبات الأسباب ولو تتبعنا ما يفيد ذلك من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع حقيقة لا مبالغة...(٢٣٠).

لذلك وجب على الإنسان أن يسعى في تدبير أمور نفسه بحسب ما علمه من سنن الله تعالى في نظام الأسباب وارتباطها بالمسببات، معتقداً أن الأسباب لم تكن أسباباً إلا بتسخير الله تعالى وأن ما يناله باستعمالها فهو من فضل ربه الذي سخرها وجعلها أسباباً وعلمه ذلك(٢٣١).

فشأن المؤمن المتوكل في دائرة الأسباب، أن يطلب كل شيء من سببه، خضوعاً لسننه تعالى في نظام خلقه، وهو بذلك يطلبها من حيث أمره أن يطلبها أمراً تكوينياً قدرياً وتشريعياً وتكليفياً(٢٣٢).

أليس كل هذه النماذج من السنن الإلهية تنطق بصريح العبارة بالإعجاز السنني في القرآن الكريم الذي يحكم كل مفاصل الكون والحياة والمجتمعات والأمم في كل مكان وزمان..

خاتمة:

إن القرآن الكريم حافل بالكثير من الآيات التي تبين سنن الله وقوانينه في الكون والحياة، وقد نزلت هذه الآيات الدالة على الإعجاز السنني في القرآن الكريم في وقت لم يكن العرب ومن حولهم من الروم والفرس والأمم الأخرى على علم بأسرارها وكنهها، فلما تقدم الإنسان وازدادت علومه ومعارفه بدأت آيات القرآن المجيدتظهر أمام بصيرته بمعانيها الباهرة، وتكشف عن إعجازها الرائع.

والمسلمون اليوم يعيشون أحلك فترات التاريخ، والنص القرآني المعجز أمامهم، ما عليهم إلا استقراء آياته لاستنباط سننه للاهتداء بها في ظلمات الحياة، ولاستشراف المستقبل وبناء العمران والإنسان..

إن السنن التي سار عليها الرعيل الأول وحققوا بها الريادة والصدارة وكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس هي نفسها الخالدة في كتاب رب العالمين بشرائطها وموانعها لم تتغير ولم تتبدل، صالحة لكل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فما على الأمة اليوم إلا أن تجدد النظر في هذا الكتاب الحكيم حتى يتبين لها إعجازه الخالدوأسرار آياته وسننه، فتسلك طريقه فتحقق بذلك ما عجزت عنه تحقيقه الأمم.

وهكذا يبقى القرآن الكريم المعجزة الخالدةكنز يستفتحه كل عصر بأدواته ليأخذ منه ما تسنى له من جواهره ودرره، ويقتبس من أنواره، ويقتفي عند فوائده وفرائده، وهو كريم كلما استثير أعطى، وهو منبع العلوم والمعارف ومفتاح الهدى والرشاد، والحل الوحيد لكل المشكلات والمعضلات التي حلت بنا اليوم؛ لأنه ليس بمعزل عن الحياة الإنسانية ومشكلاتها وعقباتهاوتطوراتها، بل جاء ليهدي الإنسانية لسنن السابقين، ويقودها إلى

٢٣٠- انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمد الآلوسي أبو الفضل، ١٨٩/١. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر و حكمه والتعليل، لابن قيم الجوزية، ص٣٩٣.

٢٣١- تفسير المنار، ٩/ ٥٩٣.

٢٣٢- المرجع نفسه، ١٢٧/١٠.

طريق الحق واليقين في كل أمر من أمور دينها ودنياها، وصدق الله القائل في محكم التنزيل: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[سورة الأنعام: من الآية ٣٨].

وانطلاقا مما سبق يمكن الخروج بالنتائج الآتية:

- الإعجاز السنني هو من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم إضافة إلى الإعجاز العلمي، والإعجاز التشريعي، والإعجاز البياني، والإعجاز الروحي الوجداني...
- الإعجاز السنني يشتمل على السنن الإلهية في الكتاب المسطور (القرآن)، كما يشتمل على السنن الإلهية في الكتاب المنظور (الكون).
- إن الإعجاز السنني يرتبط ارتباطا وثيقا بواقع الأمة والمجتمعات والأفراد، ولذلك فإن الأمة في أمس الحاجة لفهمه وإدراكه والوقوف عليه واستقراء آيات القرآن والكون لاستنباطه، لتفهم حاضرها وترسم خارطة مستقبلها، وتخدم كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ خدمة عملية تطبيقية.

التوصيات:

- دعوة المراكز البحثية والهيئات العلمية والمفكرين والباحثين المتخصصين والكُتّاب إلى الاهتمام بالإعجاز السنني في القرآن الكريم والسنة النبوية، وذلك بإنجاز مشروع مؤلف جماعي محكم بعنوان:»التأصيل النظري للسنن الإلهية في القرآن الكريم والسنة النبوية وتطبيقاتها في الأفراد والأمم والجماعات حيث يتم التعريف فيه بكل سنة من السنن الإلهية العامة والخاصة،والكلية والجزئية، وتطبيقاتها القرآنية والحديثية في الأمم والأفراد والمجتمعات..، ثم كيفية الأخذ بها والاستفادة منها في هذا العصر...
- تنظيم فعاليات قادمة (مؤتمرات ندوات...) في موضوع التأصيل النظري لعلم السنن الإلهية.
- تشجيع بحوث التخرج الجامعية في مجال السنن الإلهية.

فهل من همم ترنو وجهود تتكاثف وتتضافر للإلمام بالإعجاز السنني في القرآن الكريم والسنة النبوية والعناية به، وبذل الجهود للكشف عنه؟

ثبت المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

١. التفاسير:

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢/كانون الثاني (يناير)، ١٩٧٨م.
- تفسير القرآن الشهير بتفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، ط٢/١٣٦٦هـ-١٩٤٧م،
- تفسير الكشاف، محمد بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ)، دار الفكر، القاهرة، ط١/١٩٧٧م.
- تفسير المنار (تفسير القرآن الحيكم)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: ١٣٥٤هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: ١٩٩٠م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق-مصر.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، زين الدين عبد الرؤوف المناوي، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ط٣/ ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.
- معالم التنزيل، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى ٥١٦ هـ)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤/ ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م.

٢. المعاجم والقواميس:

- الصحاح في اللغة، إسماعيل بن حماد الجوهري، نسخة دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٥٦م.
- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت٤٢٥هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داودي، دار القلم، دمشق، ط٣/١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- كتاب العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠ه)، تحقيق: مهدي المخزومي، دار مكتبة الهلال بيروت.
- لسان العرب، محمد بن منظور (ت ٧١١ه)، دار صادر، ط١، بيروت.

٣. المراجع:

- الإحكام في أصول الأحكام، علي بن محمد الآمدي، علق عليه: عبد الرزاق عفيفي، دار الصميعي، الرياض، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، تقديم: عمر عبيد حسنة، كتاب الأمة (٢٦) الصادر عن مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر، ط١/المحرم١٤١١هـ.
- لإعجاز الخبري في القرآن الكريم»، رشيد كهوس، مجلة الفرقان، السنة: ١٥، العدد ١٤٥، جمادى الأولى ١٤٣٥هـ-آذار ٢٠١٤م.
- إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل - بيروت، ١٩٧٣م.
- اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت-لبنان، إعادة الطبعة

الثانية ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- «بين التفسير الإسلامي والتحليل السادي اللائيكي للتاريخ»، رشيد كهوس، موقع التاريخ، (www.altareekh.com): ١٦ محرم ١٤٣١هـ=٢ يناير ٢٠١٠م.
- التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون، عبد الحليم عويس، كتاب الأمة، السنة الخامسة عشرة، العدد ٥٠، ذو القعدة ١٤١٦هـ/ مارس-أبريل ١٩٩٦.
- «التأصيل الإسلامي لعلم النفس»، عبدالله بن ناصر الصبيح، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٢٢، السنة ٢٢.
- التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (٣)، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى عبد القادر غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/ جمادى الأولى ١٤٢٤هـ.
- تعليل الأحكام: عرض وتحليل لطريقة التعليل وتطوراتها في عصور الاجتهاد والتقليد، محمد مصطفى شلبي، دار النهضة العربية، بيروت، ط/١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- الجامع لأحكام وأصول الفقه المسمى: حصول المأمول من علم الأصول، محمد صدّيق حسن خان القنّوجي (١٣٠٧هـ-١٨٨٩م)، تحقيق ودراسة: أحمد مصطفى قاسم الطهطاوي، راجعه وقدم له: أبو الحسن عطية مُسعد العكّاري، دار الفضيلة، القاهرة، ط/د.ت.
- حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، دار الثقافة للجميع، دمشق -سوريا، ط٣/ ١٣٩٥ه- ١٩٧٥م.
- حركة التاريخ في القرآن الكريم، ضمن سلسلة: قضايا إسلامية، عامر الكفيشي، دار الهادي، بيروت، ط١/١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.
- حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١/١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي، طبعة مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠/١٤٢٢هـ-٢٠٠١م. وطبعة مؤسسة وهبة، القاهرة، (١٩٨٩م).
- خصائص التصور الإسلامي ومقوماته، سيد قطب، دار الشروق، ط١٦/١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
- دفاع عن التاريخ الإسلامي: المنهاج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره، محمد رشاد خليل، تمهيد وتقديم: محمد أمحزون، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١/١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- رؤية في منهجية التغيير، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط١/ ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- «سنة الله في التدرج»، رشيد كهوس، مجلة أقلام الثقافية الالكترونية (www.aklaam.net)، (الخميس ٢٥ يونيو ٢٠٠٩).
- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط٣، ٢٠٠٢م.
- السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، إشراف: مصطفى محمد الشكعة، تقديم: علي جمعة، دار السلام، القاهرة، ط١/١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م.
- السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط١/٢٠١٠م.
- «السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل»، عماد عبد الكريم خصاوونة وخضر إبراهيم قزق، مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد ١٥، العدد ٢، ٢٠٠٩م.
- سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، سلسلة الرسائل الجامعية ٣٠، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ- ١٩٩٦م.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، شمس الدين أبو عبد الله

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية, تحقيق: حسن عبد الله الحساني، دار التراث, القاهرة, ط/(د.ت).

- «الضوابط العامة لسنن الله (١)»، رشيد كهوس أبو اليسر، مجلة الداعي، السنة: ٣٣، العدد: ١١، ذو القعدة ١٤٣٠هـ-نوفمبر ٢٠٠٩م.
- «الضوابط العامة لسنن الله (٢)»، أبو اليسر رشيد كهوس، مجلة الداعي، السنة: ٣٣، العدد ١٢، ذو الحجة ١٤٣٠هـ-ديسمبر ٢٠٠٩م.
- «طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (١)»، أبو اليسر رشيد كهوس، مجلة الداعي، السنة : ٣٥، العدد :١-٢ ، محرم – صفر ١٤٣٢ هـ = ديسمبر ٢٠١٠م – يناير ٢٠١١م.
- «طرائق استنباط السنن الإلهية من القرآن الكريم (٢)»، رشيد كهوس، مجلة الداعي: السنة ٣٥، العدد الثالث: ربيع الأول ١٤٣٢هـ= فبراير ٢٠١١م.
- «العلم بالسنن الربانية»، محمد أمحزون: مجلة البيان الصادرة عن المنتدى الإسلامي بلندن، العدد ١١٥، يوليو ١٩٩٧م.
- المصطلح الأصولي ومشكلة المفاهيم، علي جمعة، منشورات علاء سرحان دار الرسالة، القاهرة، ط١/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- مع قصص السابقين في القرآن، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط٤/١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
- المعين في تفسير كلام الأصوليين، عبد الله ربيع عبد الله محمد، دار السلام، القاهرة، ط١/١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- «من أعالي التاريخ»، رشيد كهوس، صحيفة المثقف الصادرة عن مؤسسة المثقف العربي بسدني-أستراليا: (العدد: ٢٦٦٨ الأربعاء ٢٥ - ١٢ - ٢٠١٣م).
- من فقه التغيير: ملامح من المنهج النبيوي، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، ط١/ ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.
- منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، محمد محمد أمزيان، بيت الحكمة للترجمة والنشر، وجدة، ط٣/١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- منهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية القرض الربوي من أجل السكن –نموذجا-، ضمن سلسلة الفقه المنهاج (٤)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط١/د.ت.
- منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير, نوح السد محمد, دار الوفاء , المنصورة, (د.ط), (د.ت).
- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللّخمي الغرناطي المالكي الشاطبي (ت ٧٩٠هـ)، اعتنى بهذه الطبعة الجديدة وخرج آياتها وضبط أحاديثها: إبراهيم رمضان، مقابلة على الطبعة التي شرحها عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت، ط٤/١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشاطبي, تحقيق: عبد الله دراز, دار المعرفة, بيروت, ط/د.ت.
- الفتاوى الكبرى، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.
- القصص القرآني.. إيحاؤه ونفحاته، فضل حسن عباس، دار الفرقان، ط٢/ ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار الوفاء، المنصورة، ط٣، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- نحو قراءة جديدة للسيرة النبوية: سنة الله في جهاد سيدنا رسول الله ﷺ، أبو اليسر رشيد كهوس، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، مصر-القاهرة، ط١/١٤٣٣هـ-٢٠١٢م.

- نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني، سبع توفيق محمد، مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، (د.ط). (د.ت).

مطبعة الفرقان للطباعة والنشر - ود مدني

ولاية الجزيرة - ودمدنى ص ب : ٢٢٢ هاتف : ٢٤٩١٥٤٨٨٤٠٥٢+ فاكس : ٢٤٩١٥٧٩٠٣٧٨٩+

البريد اللاكترونى: info@tasil.uofq.ed.sd